قتل عمد

نوفيلا

أفنان عاطف

قتل عمد

المقدمة

جريمة كاملة الأركان مع سبق الإصرار ، جريمةٌ رضى بها القتيل و لم يرضى القاتل ، دموعٌ ذُرِفَت بدلًا عن الدماء و روحٌ تلاشت ليحل محلها أوامرٌ و نواهي لا حصر لها ، قُيودٌ كبّلت لسانه قبل يديه ؛ لتتنحى شخصيته جانبًا تاركةً للجاني حق التصرف ، عاش يُساق إلى أقداره مرغومًا و بداخله يصرخ مطالبًا بحريته المسلوبة ، طيرٌ أقبل على الحياة ؛ فباغتته بقصقصة أجنحته ليظل مرهونًا بخيطٍ يتوسط أصابعها لتحركه كلما شائت ، ظل منصاعًا خلف أحكامها الظالمة لتكون نهاية ولائه قتلٌ عن عمدٍ لاستقلاله و حريته .

أفنان عاطف

قتل عمد

الفصل الأول

القيود تُكبّل من مدّ ذراعه ، و الأحكام تُصدر على من أصغى بآذانه و عقد لسانه ، الحياة تلطم من سلم صدغيه لها ، الصفعات تتوالى ما لم تتواجد المقاومة ، و القدرة تفنى إن لم تُمارَس ، الإنسان بغير وعيٍ منه يوضع تحت إمرة من نكّس رأسه له خوفًا من بطشه .

سائرٌ في طُرقات المشفى مُتأففًا و راثيًا حاله في وظيفته التي يمقتها و بشدة ، تحرك بخطواتٍ واسعة إلى أن وصل إلى مكتبٍ ما و دفع الباب بقوة ليُفتح على مصراعيه ، انتفض الجالس بالمكتب جزعًا لكن ما إن أبصر هوية الدخيل صاح بنزق :

_مالك يا بني آدم أنت داخل زي القضا المستعجل كده؟ ، مش تتنيل تخبط ولا تعمل أي زفت .

تجاهل حديثه و جلس على المقعد المقابل للمكتب يُخرج سجائره من جيب سترته و كاد أن يشعل إحداها لكن الآخر انتزعها من يده مضيفًا يردعه :

_بتهبب إيه إحنا في المستشفى !

نظر إليه شزرًا و همّ أن يُشعل أخرى و قبل أن يتفوه الآخر صاح به حانقًا :

_"أنـس"!! ، ابعد عني أنا مش ناقصك .

طالعه "أنس" بِبعض الريبة قبل أن يردف سائلًا إياه برفق:

_مالك يا "ثائر"؟ ، من الصبح و أنت مش على بعضك ، اتخانقت مع "مُختار" بردو؟

نفث "ثائر" دخان سيجارته ثم ابتسم ساخرًا و هو يردد :

_و من إمتى و أنا و هو مبنتخانقش؟ ، هو دكتور "مُختار عاشور" يعرف يعدي يومه من غير ما ينكد عاللي خلفوني؟ ، بس لأ مش هو السبب أنا خدت مناعة خلاص .

حرك "أنس" رأسه مستفسرًا بشفقة :

_أمال مالك كده في إيه؟

تنفس بقوة و كاد أن يردف صائحًا يفرغ ما في جعبته لكن أتاه اتصالٌ من الممرضة خاصته تُنَبِّئُه بقدوم حالة مرضية إلى عيادته ، أتمم مكالمته معها باقتضابٍ ثم هتف بضيقٍ و هو يُطفئ سيجارته و يهب واقفًا :

_هطير أنا بقى عشان عندي حالة ، و بعدها هروّح عشان اتخنقت و مبقيتش قادر أقعد في المستشفى أكتر من كده .

أومأ له "أنس" فشرع في الخروج حتى استمع إلى صوت صديقه يحدثه بنبرة حانية :

_ربنا يريح بالك يا "ثائر" .

التفت له "ثائر" برأسه يبتسم ممتنًّا قبل أن يخرج متجهًا نحو عيادته بالمشفى و التي يعمل بها كطبيبٍ للعظام ، دلف بخطواتٍ متأنية ليجد فتاة تقاربه في العمر جالسةً على كُرسي المكتب في انتظاره ، كانت تجلس بهيئة مرتبة رغم الحادث بوجهها ، فقد أتت بوجهٍ لطخته الكدمات و ظهرت أيضًا بذراعها الأيسر .

اقترب منها يجلس على كرسي مكتبه و سألها بجفاء عن اسمها فأجابته :

_"جُمُوح مُؤَيَّد جادالله" .

أثار اسمها اعجابه و رأى فيها ما لم يرى في نفسه ، لقد اتخذت صفاتها من اسمها المميز ؛ فقد كان يبدو عليها الشموخ رغم ما تعرضت له و الذي يظهر أثره جليًّا على جسدها ، على عكسه هو .. لم يكن أبدًا بالثائر كما ينادى ، بل فقط طأطأ رأسه و تخاذل .

انتشل ذاته من فوهة تفكيره و تسائل مرة أخرى عن عُمرها و بعض التفاصيل الأخرى قبل أن يبدأ رحلة فحصها بعد أن أعلمته بوجود ألمٍ ينتشر بذراعها الأيسر فأوضح لها هو بعد عرضها على جهاز الأشعة أنه نتيجة تعرضٍ لكسرٍ طفيفٍ يمكن معالجته بسهولة عن طريق ضمادةٍ طبية .

انتهى من الفتاة بعد أن ضمّد ذراعها و أعطاها ميعاد جلسة أخرى من ثم ترك عيادته و غادر المشفى بأكمله ، وقف أمام المشفى يوقف سيارة أجرةٍ حتى استقل واحدةً متوجهًا بها إلى بيته ، دقائق و وصل إلى منزله في أحد شوارع مدينة المنصورة و ترجل من السيارة ثم قام بدفع ثمن الأُجرة للسائق قبل أن يصعد سُلّم العمارة السكنية إلى أن وصل أمام شُقته .

دلفها بوجهٍ واجم و بداخله يدعو ألا يتقابل مع أحد أفراد أسرته فهو بالفعل في ذروة استيائه ولا مجال لإثارة حنقه أكثر ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه و ها هو يتقابل بوالده و والدته جالسَيْن على الأريكة بغرفة المعيشة ، تحرك من أمامهما و هو يلقي السلام على مضضٍ لترد "نِهاد" والدته بنبرة تهكمية :

_و عليكم السلام! ، مالك داخل قالب خلقتك علينا كده ليه؟

و قبل أن يُجيبها تدخل والده يقول بالسخرية ذاتها :

_و هو من امتى بيرجع من المستشفى فارد وشه؟ ، بيروح يقضي الشيفت مع صاحبه الصايع و ييجي ينكد علينا إحنا هنا .

تنهد "ثائر" بقوة يحاول التحلي بالصبر ثم قال بعدما جاهد لجعل نبرته هادئة قدر الإمكان :

_أظن حضرتك عارف كويس أوي أنا برجع متضايق ليه ده أولًا ، ثانيًا "أنس" صاحبي من أيام الجامعة و شهادتي مجروحة في أخلاقه و أنا و هو بنشوف شغلنا على أكمل وجه ، كون إن "ساهر" بيوصل لك عكس كده يبقى دي مشكلته .

رفع "مُختار" حاجبه إستنكارًا لفعلة ولده و صاح فيه غاضبًا :

_أنت هتناقشني ولا إيه؟ ، و لأ يا "ثائر" مش عارف أنت متضايق من شغلك في المستشفى ليه ، مش عارف غير إن ألف واحد يتمنى يكون مكانك بس أنت اللي بطران .

ضم "ثائر" كفيه إلى بعضهما و أطرق رأسه قائلًا بصوتٍ خفيضٍ حسبه والده احترامًا و لم يدرِ بالنيران المتوهجة داخل ولده :

_و أنا مش واحد من الألف دول ، و كنت أتمنى حضرتك تستوعب ده .

قالها و تركهم متجهًا إلى غرفته ليسمع صوت والده الذي هدر بصوتٍ مرتفع :

_استنى عندك أنا بكلمك .

التفت يحدثه بنبرة راجية و أعينٍ ترقرق بها الدمع :

_كفاية أرجوك .

قالها ثم تخطى المسافة بينه و بين غرفته في عجالة و هو يضع كفيه على أذنيه لئلا يطرق سمعه قول والده الجامد :

_لو فاكر إنك كده هتصعب عليا و هسيبك تعمل اللي أنت عايزه تبقى غلطان ، أنا أدرى بمصلحتك و أنت تسمع كلامي و أنت ساكت .

و قد كان الآخر دلف غرفته و أغلق بابها ليسقط خلفه مستندًا بظهره عليه و قد انهارت حصونه ، ذلك المشهد المتكرر يومًا بعد يومٍ يُشعره بالضياع ، الأصفاد تضيق على رسغه و لم يحاول هو فك حصارها و ردع سطوتها عليه ، جلس ضامًّا ركبتيه إلى صدره يمرر بصره على جدران الغرفة الأربعة ؛ ليرى لوحاته المعلقة ، تلك اللوحات التي برع في رسمها منذ صِغره و كان ينتظر بفارغ الصبر أن تتسنى له الفرصة ليطلق لذاته العنان و يحرر موهبته المكبوتةَ بفعل فاعل .

ابتلع الغصة التي تشكلت في حلقه ثم هبّ واقفًا و هو يستند على الحائط إلى أن استقام ثم بدّل ملابسه بعشوائية و ارتمى على سريره ليغط في نومٍ عميقٍ هاربًا من كافّة آلامه .

و في مكانٍ آخر بالقرب من المشفى التي يعمل بها "ثائر" و تحديدًا بإحدى المناطق الشعبية دلفت هي شقتها بخطى وئيدة و هي تحبس دموعها حتى تواري ضعفها لئلا يجتاح شعور الإنكسار داخلها ، تحركت إلى الداخل لكن أوقفها صوتٌ أجش من خلفها ينطق بفحيح :

_كنتِ فين يا "جُموح"؟

ابتلعت ريقها بخوفٍ و ردعت دموعها غصبًا ثم التفتت تشير على ذراعها المُضمَّد ناطقةً بقوة تنافي خوفها و هي ترسم الثبات على ملامحها :

_كنت في المستشفى يا "خالد" خير في حاجة؟

مرر "خالد" بصره نحو جبيرة ذراعها و كدمات وجهها بغير اكتراثٍ ثم أضاف ببرود :

_خِفّي نزول كل شوية أنا مش ناقص حد يرمي لي كلام ملوش لازمة بسببك .

ابتسمت بألمٍ تمكن من قلبها ثم أردفت بسخرية آلمتها :

_حاضر يا "خالد" ، المرة الجاية لما كيفك يذلّك و تبقى هتموتني في إيدك هسيب نفسي لحد ما روحي تطلع ، يمكن ترتاح مني و من كلام الناس يا أخويا .

قالت كلمتها الأخيرة بقهرٍ و هي توجه سهامها المعاتبة نحوه علّها تُحرك الصخرة القابعة في صدره لكن لا جدوى؛ حيث بادلها النظرات بِشَرٍّ ثم اندفع نحوها يُحكم قبضته على خصلاتها بقوة أصدرت هي لها صرخةً مدوية .

شدد من إمساكه بشعرها و هو يرفعها إلى أعلى و يهدر بنبرةٍ سامة :

_كيف إيه اللي يذلّني يا بنت الـ*** ، و رحمة أمك لو ما ظبتي القوالة الجاية هتبقى بموتك ، مش كفاية اتطلقتي و راجعة لي بفضيحة .

رمى بحديثه في وجهها و أتبع كل كلمةٍ بلطمة على وجنتها حتى تورمت ، أما هي فرغم عجزها عن المقاومة إلا أنا رفعت صوتها قدر المستطاع تردف بتهدج :

_متجيبش سيرة أبويا على لسانك يا واطي ، و أنت متقدرش تعمل حاجة يا "خالد" ، آخرك تعمل راجل عليا عشان تحس إن ليك قيمة وسط الخلق .

تطاير الشرار بعينيه و هو يرمقها غاضبًا و كاد أن يرفع يده ليعاود ضربها لكنها باغتته بدفعةٍ من ذراعها السليم و هي تصرخ بانهيار :

_ابعد عنــي .

ركضت إلى غرفتها و أوصدت الباب بإحكامٍ قبل أن تهوي بجواره تنتحب بقوة لتستمع إلى صوته البغيض يحدثها من الخارج متوعدًا :

_بشوقك يا بنت أبويا ، بس لما أجيب آخري من عنادك و أكسر راسك الناشفة دي متبقيش تزعلي .

ازداد بكاؤها و شهقاتها بدأت في التعالي و بداخلها تحترق حُزنًا على ما آلت إليه الأمور ، بكَت ترثي روحها المُتألمة و نفسها الضائعة ، سنواتٌ مرّت على الحال ذاته منذ فقدت حاميها في ظروفٍ مريرة ، تُرِكَت ليضحى مصيرها بيد من حسبته ملجأً ليكون هو أول من تحتمي من شره .

لكن كعادتها سيطر جمودها عليها و مسحت وجهها من الدموع بعُنفٍ ثم استقامت تستند على الحائط و تحركت نحو المرآة تنظر إلى وجهها الحسن الذي تأذى بشدة بفعل شقيقها ، لقد بهت جمالها و بشرتها الفاتحة تلونت بالكدمات ، شعرها البني المسترسل صار أشعثًا و تضرر نصفه ، ملامحها المبتهجة باتت باردةً إلى حدٍّ كبير و أحيانًا يرتسم عليها القهر ، الجميع تآمر عليها لتُقتل عن عمدٍ و تُلوَّث يدُ مَن ربطهما رباط الدم بِدَمِ حُريتها .

تنهدت بحزنٍ ثم توجهت إلى سريرها ترتمي عليه ناظرةً إلى سقف الغرفة في شرود ، المصائر تتشابه رغم تباين الظروف و الجُناة ، لكن المجنيّ عليه يُوضع بين نقيدين ، إما أن يقف مُدافعًا و يتلقى من الأذى ما يلقى أو أن يتخاذل طالبًا الرضا و يتفاجأ بأن لن يلقاه و إن أزهق روحه .

و مع حلول الليل عاد "أنس" من المشفى إلى بيته ، وقف أمام الشقة و أخرج مفتاحه و كاد أن يفتح الباب لكنه فُتِحَ على حين غرة ليبصر "أنس" صغيره يقف أمامه يرحب به بابتسامة واسعة ، انفرجت شفتاه ببسمة حنونة قبل أن يتقدم من ولده و يرفعه على كتفه و هو يقبّله قائلًا بحنو :

_حبيب قلب أبوك وحشتني .

ضحك الصغير ذو العامين بصخبٍ ثم احتضن وجه والده بكلا كفّيه الصغيرين فأمسك الآخر بأحدهما و قبّل باطنه قبل أن تأتي زوجته قائلةً بهدوء :

_حمدًالله على سلامتك يا حبيبي ، هات "سُفيان" عنّك و روح غَيّر هدومك عشان تتغدى .

أومأ لها ثم أعطاه لها تحمله و قبّل جبينها حُبًّا قبل أن يتجه إلى غرفته و شرع في تبديل ملابسه أما هي حملت صغيرها إلى المطبخ لتبدأ في إعداد المائدة .

دقائق و اجتمع أفراد الأسرة الصغيرة حول المائدة فكان "أنس" على رأسها و بجواره "تقوىٰ" تحمل على قدمها ولدها "سفيان" الذي كان يعبث بالطعام بكفّه و والدته تحاول منعه و "أنس" يطالعهما بضحكاتٍ مكبوتة ، و وسط تلك الأحداث طُرق باب منزلهم فتحرك "أنس" نحوه يفتحه فوجد والدته أمامه .

ابتسم رغم تعجبه من حضورها المفاجئ لكنه لم يعقب بل أردف مُرحبًا :

_إيه المفاجأة الحلوة دي؟ ، اتفضلي يا حبيبتي تعالي اتغدي معانا .

تقدمت "سناء" بضعة خطواتٍ و هي تنكس رأسها قائلةً بحرج :

_معلش يا حبيبي حقكم عليا إني جيت من غير معاد .

و تلك المرة لم يجب ابنها بل علا صوت "تقوى" من الداخل تقول بلُطف :

_يا طنط أنتِ تيجي في الوقت اللي يعجبك ، هاتها يا "أنس" و تعالى معلش مش عارفة آجي لكم عشان "سُفيان" .

نظر "أنس" إلى والدته بمعنى (أسمعتِ؟) ؛ فابتسمت بامتنانٍ ثم تقدمت نحو المائدة برفقة ولدها و جلست في صمتٍ دام لثوانٍ قبل أن ينطق "أنس" يعاتبها برفق :

_أنتِ محتاجة عزومة يا ماما؟

رفعت رأسها تحدثه بوجوم :

_كتّر خيرك يا ابني أنا مش جاية أتضايف ..

أطلقت تنهيدة حزينة ثم أكملت بعدما تجمعت الدموع بمُقلتيها :

_أبوك يا "أنس" .. أبوك بعد العمر ده كله عايز يرميني و يتجوز!

و بالذهاب إلى بيت "مُختار" كان يجلس الابن الوحيد لتلك العائلة في غرفته منعزلًا كما عادته ، كان يضع السماعات على أذنيه مبتعدًا بها عن ضجيج العالم متغافلًا عن ضجيج رأسه ، جلس أمام إحدى اللوحات البيضاء يخُطُّ بفرشته عليها و هو يتذكر أحد نقاشاته الحادة مع والده و خاصة ذاك الذي نشب يوم ظهور نتيجته في آخر سنوات دراسته المدرسية .

منذ تسعة سنوات

وقف "ثائر" أمام والده يتلقى توبيخه و هو يكبح دموعه بصعوبة بالغة ، ودّ لو يصيبه الصمم حتى لا يستمع إلى تلك الكلمات اللاذعة و التي ختمها "مُختار" صارخًا :

_أنا اللي غلطان إني حطيت أملي في واحد فاشل زيك ، بتعاندني يا "ثائر"؟ ، فاكر إني كده هاخدك بالأحضان و أقول لك سيبك من الدراسة يا حبيبي و خليك في شغبطة الفرشة بتاعتك؟ ، بعينك يا "ثائر" بردو مش هتعمل اللي أنت عايزه حتى لو بمجموعك ده .

رفع "ثائر" رأسه في مواجهة والده يتحدث معترضًا :

_ماله مجموعي يا بابا؟ ، عشان مجيبتش طب يعني؟! ، مين قال إني عايز أدخل طب أصلًا؟ ، يا بابا افهمني ، أنا ...

رفع "مُختار" سبابته يُشهرها في وجه ابنه هادرًا بحنق :

_أنت تخرس خالص و مسمعش صوتك ، أنا اللي بقول لك هتدخلها عشان أنا مش هسيبك تضيع مستقبلك في التفاهة بتاعتك دي ، هقدم لك في جامعة خاصّة و ده آخر كلام عندي .

قالها ثم شرع أن يتحرك و يتركه لكن "ثائر" تحدث مقهورًا بعد أن خانته دموعه و هبطت :

_بس أنا مش عايزها .

و لم يُعقّب "مُختار" على حديثه بل اكتفى بتعليقٍ ساخر :

_مفيش راجل بيعيط .. استرجل ، مش آخر الدنيا يعني .

عودة

بالفعل ليست نهاية العالم يا أبي .. لكنها كانت نهايتي أنا ، تردد هذا الصوت داخله ؛ فمنذ ذلك اليوم انتهت أحلامه و أضحى دميةً بين أيديهم يُحركونها وقتما شاءوا ، انتهى كل شئٍ عدا شغفه للرسم ؛ فقد كانت تلك الوسيلة الوحيدة لتفريغ مشاعره .

وها هو ينفذ ذلك فعليًّا ؛ حيث كان يرسم فتًى مُبهم الملامح مُكّبل الأيدي و حوله أفواهٌ تُلقي عليه أحكامًا تنافي رغبته لكن حقًا من يكترث؟

انتهى من لوحته ثم حملها لتركها تجف جانبًا لكن قطع ذلك صوت انفتاح الباب تبعه دلوف والدته التي قالت بنبرة باردة :

_سيب الهبل اللي في إيدك ده و اجهز عشان رايحين المشوار اللي قولت لك عليه ، و البس قميص بلاش هدومك دي متعرناش قدام الناس .

امتعضت ملامحه ثم استنكر بقوله :

_و هو أنا هعركم في إيه لما ألبس تيشيرت؟ ، لازم أتكتف يعني مش برتاح في القُمصان أنا .

اكتفت بجملة واحدة كانت كفيلة لإشعال النيران داخله :

_مش مهم .

رمت كلماتها ثم خرجت و تركته ينظر في أثرها بحُزنٍ لم يلتفت أحدٌ له و لن يلتفت .

و في منزل المرحوم "مُؤَيّد جادالله" جلست ابنته على طرف فراشها تضع المرهم الطِبّي على كدمات وجهها إلى أن دبّ الرعب بأوصالها فور استماعها إلى صوت ولوج أخيها إلى الشقة ، ارتعبت بشدة و تزايد الخوف بقلبها كلما سمعت خطواته تقترب من غرفتها ، مظهرها الشامخ تلاشى خوفًا من أن يكون شقيقها ثَمِلًا كما يعود كل ليلة .

ازدردت لعابها و سرت رجفة في كفّها حينما فتح باب غرفتها لكن لحسن حظّها _بصورةٍ نسبيّة_ كان بكامل وعيه ، جلست تفرك كفّيها بتوترٍ و هي تراقب بطرف عينها اقترابه منها و الذي كان أشبه باقتراب الجلّاد لتنفيذ حُكم الإعدام بها .

لكنه رمى بجميع توقعاتها عرض الحائط و حدّثها بنبرة حانية :

_عاملة إيه دلوقتي؟ ، لسه تعبانة؟ ، حقك عليا يا "جُموح" إني اتعصبت عليكِ .

التفتت برأسها بسرعة تتيقن من سمعها ، فكيف لتلك الكلمات المكسوة بالعطف أن تخرج من فمِ شقيقها ، نظرت إليه مُرتابةً فوجدته يُضيف بندم :

_حقّك متصدقينيش ، أنا جيت عليكِ كتير يا اختي ، بس أُعذريني أنتِ من يوم ما اتطلقتي و أنا الحِمل زاد عليا و بقيت بتعصب من الهوا .

و هنا التوى فمها بابتسامة ساخرة حينما أدركت أن كلماته الحانية ما هي إلا ستارٌ أخفى خلفه حديثًا سامًّا مُلحقًا بكارثةٍ ستحل على رأسها .

عادت "جُموح" إلى جمود ملامحها قائلةً بعتابٍ تمازج مع الثبات :

_و أنا بعفيك من شيلتي يا "خالد" ، من بكرة هنزل أشتغل و أصرف على نفسي مُتشكرة لأفضالك ، و لو عايزني أسيب البيت خالص عينيا ، أنا كده كده مبقاش ليا فيه حاجة من يوم ما أبوك و أمك ماتوا .

مد يده يمسك بِكفها فسرت البرودة في جسدها و جفلت من تلك الحركة لكنه تجاهل ذلك قائلًا بِودٍّ غريبٍ عليه :

_و أنا بردو يِصَح أرمي أختي و أبهدلها في الشوارع؟ ، عندي ليكِ فرصة عمرك ، وافقي عليها لمصلحتك أنتِ قبل أن حد .

قضبت جبينها تعجبًت من حديثه لكنه أرضى فضولها مُضيفًا بجشع :

_راجل متريّش و رايدك في الحلال ، عارف ظروفك و راضي بيكِ على عيبك ، هو بس كبير حبتين تلاتة كده بس مش مهم ، ده هينغنغك و يرفعك لفوق و أنا معاكِ .

تغاضت هي عن أثر كلمة "عيبك" التي ذكرها وسط حديثه المعسول الذي توارى خلفه الخبث ، حديثه بأكمله حطّم بقايا روحها و كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير .

تجمعت الدموع بعينيها قبل أن تردف بقهر :

_ليه يا "خالد" ؟ ليه مصمم تكرهني فيك و أنا بحاول أبرر لنفسي اللي بتعمله فيا؟ ، كفاياك يا "خالد" إهانة فيا لحد كده كفاية ، ده أنا أختك! .. عايز ترميني الرمية دي كإني لِقيّة؟ ، ما أنا قولت لك هعفيك من مصاريفي و أصَرّف نفسي ليه تعمل فيا كده حرام عليك .

و هنا تبدلت ملامحه الحانية إلى أخرى امتلأت شَرًّا قبل أن يصرخ بها بصوته الذي بات يمثل كابوسًا لها :

_حُرمِت عليكِ عيشتك ، عايزاني أنزِّلك تشتغلي عشان اللي يسوى و اللي ميسواش يجيب في سيرتي و سيرتك؟ ، لَهو أنتِ فاكرة إن زيك زي كل بنات الحارة هتعملي اللي على كيفك؟ ، لا يا روح أمك أنتِ عارفة كويس أوي إنك معيوبة و النفس اللي بتتنفسيه محسوب عليكِ ، ولا تكوني يا بت مستنية العريس الأمَلة اللي هييجي ينشلك من هنا ، مين ده اللي هيرضى بيكِ ده أنا لسه بلم الفضيحة من وراكِ أنتِ و جوزك اللي مستحملكيش و خلع .

كلماته كانت تخترق روحها و تحرقها و دموعها تهبط دون هوادة ، للمرة الأولى يعجز لسانها عن الرد أمام عجرفته فتلك المرة قد تخطى هو كل الحدود ، و لم يكتفي بذاك القدر بل وقف أمامها ناطقًا بفحيح :

_الراجل قال لي قدامي شهر أقنعك فيه ، و أنتِ عارفة إني مش بتاع محايلة ، هتيجي من نفسك تقولي أمرك يا اخويا و تتزفي على بيت جوزك هتكسبي و كتير أوي يا "جُموح" ، هتركبي دماغك هتشوفي جهنم ربنا عالأرض ، و دي آخر مرة بحذرك يا "جُموح" إنك تقفي في وشي .

ألقى حديثه دفعة واحدةً ثم تركها و خرج مندفعًا بينما هي وقفت مدهوشة و إمارات الصدمة لا تنفك عن وجهها ، ألم يكفه ذبح روحها طيلة السنوات المنصرمة لتكون النهاية أن يلقي بها في حافة الهاوية؟

الفصل الثاني

الزمن يتوقف لحظة تسليمك لعمرك بين يدي الدنيا لتفعل به الأفاعيل ، حياتك مرهونة بمقاومتك و دفاعك عن أحلامك ، إن وقفت خاضعًا ستسلب ملكيتك حتى في ذاتك ، سنتهب حريتك و حقوقك ، فأنت كالطير الحُر تحلق عاليًا و تتوجب عليك حتمية توخي الحذر ، فإن سقطت بين شِباك الصيّاد فريسةً فلن تُبرحك القيود حتى و إن قدمت روحك قربانًا .

"المواجهة ستكلفك تحمل آلام العبارات لكن صمتك ربما يكلفك فُقدان هويتك"

طرقاتٌ صاخبة على باب إحدى المنازل بالمدينة ذاتها ، طرقاتٌ جفل لها الماكث بالمنزل فهبّ يفتح الباب الفاصل بينه و بين الطارق الهمجي ، تقدم من الباب و هو يسب الطارق الذي أرّق لحظته الهادئة ليجد أنه لم يكن إلا ولَده الأصغر الذي اندفع مثل التيّار يصيح عليًا :

_الكلام اللي أمي بتقوله ده حصل؟ ، آخرتها تكسرها و أنت عارف إن ملهاش غيرك؟

رفع "حسَّان" حاجبه استنكارًا و هدر يوبخ ابنه بجمود :

_و أنت جاي لحد هنا تعلي صوتك على أبوك عشانها؟! ، و ملهاش حد غيري ليه و أنت روحت فين؟! ، البركة فيك خدها عندك طالما محموق عشانها أوي كده .

رمقه "أنس" بخيبة أملٍ ثم أردف يلتمس عطفه :

_طب و عمرها اللي ضيعته جنبك؟ ، لما اختارتك من وسط الكل تسلم حياتها بين إيديك و تآمن لك ، كل ده هان عليك !!

و لم يهتز به شعرة بل استمر في تبجحه مدافعًا عن متطلباته فهتف بنبرة جامدة :

_أنا مضربتهاش على إيديها عشان تكون معايا هي اللي اختارت بمزاجها و أنا كمان من حقي أختار ، أنت و اختك اتجوزتوا و عيشتوا حياتكم و أنا مش هفضل معلق نفسي جنب أمك ، هي خلاص راحت عليها .

قرر "أنس" مضاهاته بطريقته الجافة فنطق متهكمًا رغم كُرهه لأن يُحدث والده بطريقة غير لائقة :

_و مين بقى اللي هتوافق على واحد متجوز و عنده أحفاد؟

التوى ثغر "حسّان" ساخرًا ثم أشار باصبعيه كعلامةٍ على النقود قبل أن يتحدث بصلف :

_أنا أقدر أعمل اللي يكيفني طالما معايا ده ، زي ما دخلتك طب بفلوسي ولا تكون ناسي يا دكتور؟

صُعق "أنـس" من فظاظة حديث والده فقال مدهوشًا :

_بِتمِنّ عليا يا بابا؟

رفع "حسّان" طرف أنفه بعنجهية و نطق بمكر :

_لا يا حبيب قلب أبوك أنا بس بفكرك بحجمك قصادي و إن أوّلك و آخرك عندي أنا ، يعني تهدى على نفسك كده و تاخد بعضك و تمشي عشان كنت رايق و أنت عكننت عليا .

للحقيقة تعجب "أنـس" ؛ فمنذ متى و صار والده بتلك القسوة و الجحود؟ ، لطالما كان حنونًا عطوفًا على والدته بالأخص فما تُراه يفعل و لمَ؟

تنهد "أنـس" بقوة و رمى والده بنظراتٍ آلمته هو لكن أثرها مر مرور الكرام على الآخر ، رمقه للمرة الأخيرة بلومٍ قبل أن يتركه و يخرج و بداخله آلاف الأسئلة التي خلتٍ من أجوبتها دون سببٍ واضح ، تحرك متجهًا نحو بيته و عقله لا يبرحه التفكير .

وصل حيث شقته و دلفها بكتفين متهدلين فوجد زوجته في استقباله تطالعه بترقبٍ فهمس لها بخفوتٍ يتسائل عن والدته فأجابته بنبرة تلونت بالحزن :

_قعدت معايا شوية تشتكي لحد ما تعبت و دخلتها تنام في أوضة "سُفيان" ، صعبانة عليا أوي يا "أنس" دي تعبانة خالص .

زفر بقوة ثم كبح غضبه من الأمر برمته قبل أن يمد يده إلى "تقوى" بكيسٍ و هو ينطق مقتضبًا :

_دي أدوية الضغط و السكر و القلب بتاعتها ، هتلاقي مواعيدهم مكتوبة بالتفاصيل في حال إني مكنتش موجود معلش هتخلي بالك من أدويتها ، و حقك عليا أنتِ ملكيش ذنب في كل ده و احنا هنتقل عليكِ .

التقطت منه الحقيبة البلاستيكية و هي تقول معاتبةً إياه بلطف :

_عيب الكلام ده والله ، لأجل عين تكرم ألف عين و أنا عشانك أخدمها برموش عيوني ، أنت عارف إني بعز مامتك أصلًا .

ابتسم يمتن لها ثم رفع يده يربت على رأسها بخفة قبل أن يطبع قبلة حانية على جبهتها و يضمها في عناقٍ كان هو في أمس الحاجة إليه ، استنبطت ضياعه فتمسكت به أكثر تبث في روحه الاطمئنان و السكينة .

ثوانٍ خرجت من بين أحضانه و تركته ليذهب إلى غرفته و يأخذ قسطًا من الراحة ، دلف الغرفة ليجد ولده مستلقيًا على السرير ذاهبًا في سُباتٍ عميق ، ابتسم لرؤيته بتلك الهيئة ثم بدل ملابسه و تقدم نحوه يخطفه في عناقه و غفى الاثنان في استقرارٍ برع "أنس" في الحفاظ عليه .

و في صبيحة اليوم التالي استيقظ "أنس" و خرج من غرفته فوجد والدته جالسةً على الأريكة في المنزل تبكي بصمتٍ و شقيقته التي أتت لتوها تجلس جوارها تربت على كتفها بمؤازرةٍ و هي تكبح دموعها و "تقوى" في مقابلتهم تحمل ولدها و تنظر إلى كلتيهما بأسًى ، زفر أنفاسه بحدة أعربت عن الضيق القابع على صدره ثم تقدم منهن و جثى أمام "سناء" يمسك بيدها بين راحتيه و هو يملس عليها قائلًا بحنان :

_بتعيطي ليه دلوقتي؟ ، ما الحمد لله أنا معاكِ و "فريدة" أختي معاكِ و "تقوى" و حتى الواد "سُفيان" بيحبك ، كلنا هنا عايزينك و محتاجين وجودك ، عشان خاطري متعمليش في نفسك كده .

قصد طمأنتها بقوله و قد فعل ، هدأت قليلًا و مسكت دموعها و تبادلا النظرات و هو يرمقها داعمًا ، أما هي فناظرت فيه بشغفِ أمٍ لطفلها الذي كَبُرَ و صار يساندها هو بعدما استند عليها أعوامًا .

الأيام لا تتوقف عند مُبتلاك ؛ فهي كعدّاءٍ يتخطى مدمار السباق منافسًا الرياح في سرعة هبوبها ، و هنا يتوجب عليك الإنتقاء بين اثنين ، أن تهب نفسك لمجاراتها في سباقها الذي أشركتك به عنوةً أو أن ترفع راية الاستسلام و تتنحى جانبًا حتى لا تدهسك ، وقتها ستجدها تمُر مَرّ السحاب و أنت لازلت في موضعك عند بقعة ماضيك لا تملك القدرة على الحراك .

قد مرّ أسبوعٌ منذ ذاك اليوم الحافل و ها قد أتى صباحٌ جديد ، و بداية ذاك الصباح كانت في بيت "مُختار" الذي استيقظ ابنه و أخذ يتأهب لعمله على مضض و هو يتأفف و كل أمانيه ألا يزداد حنقه على يد حديث والديه المحقون بالسموم .

انتهى من ارتداء ثيابه ثم ألقى نظرةً في غرفته قبل أن يفر هاربًا خشيةً من مهاجمة الذكريات المريرة التي حدثت بتلك الغرفة الضئيلة التي بالكاد تسع أحلامه ، لكنه على يقينٍ من أن أحلامه لن تتخطى حدود الغرفة ؛ فالعالم بالخارج غير مُرحِبٍ بالحالمين أمثاله ، فقط يحتاج لمن يستسلم للأغلال كي يسوقه إكراهًا .

خرج "ثائر" من غرفته و هو ينتوي الذهاب إلى عمله مباشرةً لكن أوقفه صوت والده الذي نطق بنبرةٍ حملت الإلزام يأمره أن يتقدم من الطاولة لتناول فطوره لكنه رفض بأدب :

_شكرًا لحضرتك مش جعان ، لو جوعت هبقى أفطر في الشغل .

لكن "مُختار" كرر طلبه الذي كان على هيئة الأمر فتأفف "ثائر" دون أن يراه أحدٌ ثم تقدم منهما مجبورًا و هو يحلم باليوم الذي سينال به حريته لكن كيف؟ ، جلس على المائدة يقلب الطعام أمامه بغير فائدة و عقله مشغولٌ بحريته المسلوبة _من وجهة نظره_ فقد كان بالفعل لا يستوعب أن فؤاد والديه احتجز الحُب له وحده ، هو صغيرهما الأوحد و هو من نال كافة اهتمامهما و خوفهما الذي سيطر على أفعالهما دون أن يعيا لما حدث جراء خشيتهما عليه ، لقد قيداه بالأصفاد ليظل معلقًا بهما و يوجهانه إلى سُبُلٍ لا مجال للخطأ فيها ، لم يتركانه ليحظى بتجاربٍ تُكوِّن شخصيته حتى أضحى تابعًا لهما .

تنفس "ثائر" ينقي صدره ثم رمى نظرة سريعة على الطعام قبل أن يتوجه بحديثه إلى والدته قائلًا بسخطِ طفل :

_مفيش حاجة من الأكل ده أنا بحبها و حضرتِك عارفة ، أنا عايز ..

و لم تتركه يُكمل حديثه حيث قاطعته قائلةً بنبرة أوضحت عدم اكتراثها :

_مش مهم تحبه المهم جسمك يستفيد منه ، مش أنا اللي هقول لك الكلام ده يا دكتور .

و مرةً أخرى يرى قوانينهما _التي اتخذت من المنطق حيِّزًا_ أصفادًا تضيق على رسغه و يود لو يحتج على الوضع كاملًا ، يود أن يحل عقدة رباط أجنحته و يُرفرف بهما عاليًا ، يود أن يُقاوم و يحطم الحصار المُشيّد حول حريته ، قد حمل داخله آهاتٍ تمنى لو خرجت من جوفه متحديةً لسانه المعقود .

و كعادته أذعن و شرع في تناول فطوره في عجالة ثم تركهم و هبط إلى الأسفل بخطواتٍ سريعة و استقل سيارة أجرة لتأخذه إلى عمله ، و في خلال طريقه الذي يتراوح بين القِصر و الطيل توقف بسبب ازدحام الطريق فاستمع إلى نغماتٍ أتت من مذياع السيارة المجاورة له أشعلت النيران بقلبه .

"أحلامك مش مقاسك لأ دي اكبر نمرتين تلاتة .. عكس اتجاهك ماشي و أنت مش خايف كالعادة

مجنون .. معجون بماية العفاريت محبوس .. مستني لحظة حظ ينفتح فيها الفانوس .. أيام ما كنت تقدر تنام تمن ساعات و تعدي ليلة كاملة من غير ما تشوف كابوس

مرايات و الصورة عكس الصورة .. عمري في المرايات .. و سنين جوه صورة و شريط ذكريات"

و في الوقت ذاته كانت "جُموح" في غرفتها تتأهب للذهاب إلى المشفى كي تطمئن على كسر ذراعها و تضمد جراحها الغائرة ، وقفت أمام المرآة تُرتب خصلاتها و هي تحركها بغنجٍ مُحببٍ إليها ، فأكثر ما يميزها كما ترى هي خصلاتها الحبيبة ، خصلاتها كستنائية اللون التي يصل طولها المتوسط إلى منتصف ظهرها .

لم يكن سبب حبها جمالُ خصلاتها الفائق و الذي تخطى حدود الكون ، فقد كان جمالها نسبيًّا إلا أنها تهوى النظر إليها لتتذكر لمسات والدها الحانية عندما كان يمشطها في صغرها قبل أن تذهب إلى مدرستها لتظل طيلة اليوم تلوح برأسها في دلالٍ و تتباهى بشعرها الذي رُتِّب بكُل حب .

لمع بريق الدموع في حدقتيها عندما سحبها عقلها في بقعة من الذكريات التي تمنت أن تظل غارقةً بها دون إفاقة ، شابهت في مشاعرها "شوقي" حينما تغنى بشعره قائلًا :

"اختِلافُ النَهارِ وَاللَيلِ يُنسي .. اُذكُرا لِيَ الصِبا وَأَيّامَ أُنسِي" .

انزلقت دموعها الخائنة على خدّيها و هي تتذكر كيف ساومها شقيقها على اهدار سنوات عُمرها مقابل أموالٍ سيدفعها الجاني لتنفيذ جريمته ، أموالٌ سيحتجزها شقيقها و يتركها بين لهب النيران حتى تبلغها ، ناظرت المرآة تبحث عن ذاتها الضائعة في تلك الشبيهة و بعقلها يتردد صوت استمعت إليه منذ فترة بمحض الصدفة .

"كابوس اسمه الفلوس .. عمال يدوس .. ياما فرق حبايب و ياما غير نفوس

خلاك تشوف الدنيا وش مش عامل حسابه .. و الواقع غصب عنك بقى يقرا لك من كتابه

حياة .. تفاوضك تساومك و شئ في شئ .. تحاوطك تمضيك تنازل عن كل شئ .. مخطرش يوم في بالك إن الفراق ده فرض و إن الزمان هيدلق أحلام كتير عالأرض

مرايات و الصورة عكس الصورة .. عمري في المرايات .. و سنين جوه صورة و شريط ذكريات"

الفراق فرضٌ و دينٌ سيحين موعد سداده ، و على كلٍّ سيأتي اليوم الموعود مُحملًا بالأشجان و كل ساقٍ سيسقى بما سقى ، هكذا طمأنت نفسها قبل أن تتحرك من غرفتها و تغادر المنزل ذاهبةً نحو وجهتها المعلومة .

و في نفس التوقيت وصل كلاهما إلى المشفى و تخطيا الرواق سويًّا و هو يختلس بعض النظرات لها أما هي فتقدمت بخطى وثابة لتنهي الإجراءات اللازمة بالمشفى بينما هو أثبت حضوره بإمضاءٍ ثم توجه نحو رفيقه أولًا قبل أن يباشر عمله .

دلف مكتب "أنس" الذي كان في الطابق الذي يلي الخاص بمكتبه حيث كان الآخر يعمل في قسم الجراحة ، تقدم من صديقه الذي لم يكن مَرِحًا كعادته بل خَيّم الحزن عليه و ظهر جليا على ملامحه ، قضب "ثائر" جبينه ثم اقترب منه متسائلًا بقلق :

_مالك يا "أنس" ؟ ، مش عوايدك يعني التكشيرة دي .

تنهد "أنس" بثقلٍ ثم طالع صديقه بنظراتٍ خاوية قبل أن يبدأ بسرد الحديث بينه و بين والده بإيجازٍ أثار تعجب "ثائر" فنطق دون أن يعي :

_عمّي "حسّان" يعمل كده! ، ده أنا من يوم ما عرفتك و أنا بحسدك على حنيته هو و طنط .

توجهت سهام "أنـس" نحو رفيقه و هو يرمقه ضيقًا فبرر الآخر بخفوت :

_مش قصدي .. أقصد يعني أكيد في حاجة غلط ، حاول تتكلم معاه تاني كده افهم في إيه .

لوح "أنـس" بيده بعدم اكتراثٍ _ظاهري_ قبل أن يدق هاتفه برقم شقيقته و ما إن أجاب على المكالمة حتى وصله صوتها المتقطع و شهقاتها المتلاحقة فسألها و قد بدأ القلق يتسلل إلى قلبه :

_"فريدة"!! ، اهدي يا حبيبتي .. براحة كده في ايه؟ ، براحة عشان أفهمك .

جاهدت "فريدة" قدر المستطاع أن تخرج حديثها مرتبًا لكن كانت كمن انعقد لسانه و بالكاد خرجت بعض الكلمات من جوفها بنبرة مهتزة :

_ماما .. ماما مش بتفوق يا "أنس" .

انتفض من مكانه و هو ينهي المكالمة معها بعدما سقط فؤاده أرضًا من مجرد تخيل جسّد حديثها أمام ناظريه ليطرق باله أبشع المصائر ، ركض خارج مكتبه و خلفه "ثائر" يحاول الاستعلام عن سبب هرولة رفيقه لكن "أنـس" التفت إليه و أوقفه بقوله :

_خليك و لو احتاجت حاجة هكلمك ، بس خلي موبايلك مفتوح .

أومأ له "ثائر" برأسه إيجابًا ثم عاد أدراجه نحو عيادته ليدلفها و بعد ثوانٍ ولجتها هي و تقدمت من مكتبه فهمس بنبرة ظنها خفيضةً لكنها وصلت إلى مسامعها :

_أنتِ كل مرة تيجي متخرشمة كده .

رمقته من عليتها و قد تغلب الضيق على نظراتها نحوه و كذلك صوتها الذي نطقت به قائلةً بجفاء :

_شئ ميخصش حضرتك أعتقد .

رفع أنظاره لها يحدقها بغرابة فوجدها كما هي ، جامحة ترمي بكلماتها دون خشية ، رغم هيئتها التي تصرخ بكل ما فيها أني ضحية انتهكها الجاني دون رحمة ، إلا أن ثباتها يقف في الجهة المقابلة يحارب لأجل البقاء .

مرر "ثائر" بصره روحة و جيئة على تقاسيم وجهها و توغل بصره داخل عينيها الرماديتين يحاول سبر أغوارها و الاستدلال على مكنونها الغريب من نوعه ، و ما كان منه إلا أن أردف هادئًا :

_أنتِ حُرة ، أنا بس في نيتي أساعدك .

التوت شفتا "جُمُوح" بتهكمٍ على ذكره "حُـرة" ، لطالما كانت جامحة لكنها لم تكن أبدًا بالمُهرة الحُرة ، تثور و تحتج و يرتفع صهيلها معارضة الوضع برمته ، لكنها تغفل عن اللجام الملتف بعنقها بين يدي خيَّالٍ لم يُنزّه بشِيَمِ الفرسان .

تنفست بعُمقٍ ثم جلست أمام "ثائر" ليبدأ في فحص كسر ذراعها و تضميد جراحها بمساعدة ممرضته الخاصة ، و قد لاحظ هو تباين الجروح ما بين حديثٍ و أثرٍ قديم ، ارتاب بشدة لأمرها و تخبطت أفكاره تجاهها ، يدفعه فضوله لمعرفة مم تتكون تلك الشخصية الفريدة ، شخصيةٌ تجمع بين الشئ و نقيضه ، قوة ظاهرية و ضعفٌ سمح لمعتدٍ التجرأ على جسدها بأبشع الطرق ، جموحٌ يسيطر على ملامحها و انكسارٌ يظهر جليًّا بعينيها .

دقائق و انتهى من فحصها ثم طمأنها بقوله :

_الكسر بسيط الحمد لله و الجبس ممكن يتفك الأسبوع الجاي بالكتير ، بس الوضع كله غلط مينفعش أبدًا تسكتي عاللي أنتِ فيه ده .

لم تجب على اعتراضه بل اكتفت بحديثٍ جاف :

_شكرًا لمساعدتك يا دكتور ، دورك انتهى لحد هنا عن اذنك .

و هنا وصل "ثائر" إلى ذروة غضبه فاستقام يضرب سطح المكتب بيده و هو يصيح حانقًا :

_هو في إيه بقى أنا ساكت لك من بدري ، إيه الطريقة اللي بتكلميني بيها دي هو أنا شغال عندك!! ، أنا غلطان إني عايز أساعدك ، اولعي إن شاء الله اللي عمل فيكِ كده يموتك حتى أنا مالي ، مش قادرة عليه هتيجي تتشطري عليا .

رفعت حاجبها استنكارًا ثم علا صوتها تهتف في وجهه بنبرة هجومية :

_أنا مطلبتش مساعدتك أصلًا عشان تتدخل و تكلمني بالأسلوب ده .

همَّ أن يذيقها كلماتٍ لاذعة كالتي ترميه بها من لسانها السليط لكنها لم تُعره فرصة حيث أدارت ظهرها و تحركت بخطواتٍ سريعة نحو الخارج أما هو فأطلق سبة من بين شفتيه ثم عاد يجلس على مكتبه بغضبٍ مكتوم و وقع بصره على هاتفٍ يقبع على سطح المكتب فاستنتج أنه لها ، التقطه و خرج بسرعة يلحق بها إلى أن بلغها و صار يسير جوارها و هو يقول ساخرًا :

_ابقي افتكري تاخدي حاجتك بدل ما تلبسيها فيا و اطلع حشري و حرامي كمان .

قالها و هو يمد يده بالهاتف فأخذته و هما يكملان سيرهما فنطقت هي مع ابتسامة صفراء :

_كتر خيرك يا دكترة ، مش مضطر تفضل لازق فيا ، ارجع شغلك عشان ميتخصملكش يا عسل .

تجاهل سخريتها اللاذعة و صرَّح مردفًا :

_جوزك؟ ، ولا حد من أهلك؟ .

قصد بحديثه المتسبب في أذيتها فصمتت عن الحديث حتى خرجا من المشفى ثم التفت له باندفاعٍ تهدر بانفعال أن يتركها و شأنها لكنه قابل صراخها ببرودٍ ماثل نبرته حينما قال :

_أنا مش عايز منك حاجة ، كل اللي عايزه إني أديكِ تقرير طبي تعرفي تاخدي بيه حقك ، مش فاضي للكونتيسا كل شوية تيجي لي مضروبة .

أغمضت مقلتيها تحاول كبح غضبها ثم فتحتهما بتروٍّ و تحدثت بنبرة خفيضة هادئة :

_ولا تزعل نفسك هبقى أروح مستشفى تانية ، ولا الحوجة لأشكالك .

استمرت في سيرها أما هو فلحقها بغير أن ينبس ببنت شفة و حينما ظهر التبرم على ملامحها نطق مُبرِّئًا ذاته :

_أنا مروح بيتي في حاجة؟

قلبت عينيها بملٍ ثم نبست بصلف :

_مسألتش أصلًا .

تابعا سيرهما و هي تتأفف بين الحين و الآخر من اقترابه منها و كأنه ظلها ، ظلا هكذا قرابة العشر دقائق حتى طفح كيلها و صاحت مستنكرة :

_هو الباشا ساكن في صالة بيتنا ولا حاجة؟

رسم ابتسامة سَمِجَةً على شفتيه و أردف :

_لا بخلي بالي من النُغة أحسن حد يطلع عليها يثبتها ولا حاجة ، ولا مش هتاخدي رد فعل ضده بردو؟

انتفخت أوداجها حنقًا و هي تزفر بقوة لتجده على حين غرة شبّك كفها بخاصته و هو يسحبها إلى أحد جانبي الطريق قائلًا بمراوغة :

_أنا مفطرتش كويس تعالي نفطر بعدين نكمل توصيل النُغة.

لم تدرك هي فعلته إلا حينما توقف بها و حينها أخرجت مِبرَد الأظافر من حقيبتها و غرزت حافته المدببة بعنقه و هي تهدر بتهديدٍ صريح :

_إيدك لو لمستني تاني و لو حتى بالغلط أنا هقطع خبرك يا دكترة .

مد كفه بمسك بطرف المِبرد الذي آلمه رغم عدم إحداث جُرحٍ و أبعده عن عنقه بحركاتٍ متروية قبل أن يومئ باحترامٍ لرغبتها و بعض من الخوف في الآن ذاته ، فقد شنَّت عليه غريبة الأطوار تلك حروبها ليس و كأنها بجراحها خارجة من بين فكي سَبعٍ مفترس .

قلبت بصرها بالمكان فوجدت أنهما أمام أحد عربات الباعة الجائلين و الذي كان يبيع شطائر تحتوي على ما يسمى بـ"الكبدة" ، اقترب "ثائر" من البائع و ابتاع بعض الشطائر ثم عاد بهم حيث تقف و التقط واحدةً ليمد كفه بها نحوها .

ترددت لثوانٍ فهي تشعر بالغرابة تجاه الموقف بأكمله لكنها كانت تتضور جوعًا بحق لذا التقطته منه و هي تشكره بنبرة هامسة و قد لانت ملامحها حتى أصدر كلماتٍ مصحوبةً بغمزة قبل أن يضع قضمة من الشطيرة بفمه :

_لا شُكر على واجب يا نُغَّة .

ظهر الضيق مرة أخرى على صفحات وجهها لكنها آثرت الصمت و شرع كلاهما في تناول الشطائر لكن "جُموح" لاحظت أن الآخر يفتت أطراف الشطائر خاصته و يرمي بها على الأرضية حتى تقترب منها طيور الحمام و تلتقطها بمنقارها الصغير .

تكرر الأمر كثيرًا حتى اقتربت إحداها تقف على كتفه فملس بباطن كفه على رأسها بحنانٍ بدى في ابتسامته الواسعة لذا دفعها فضولها لسؤاله بإيجاز :

_بتحبهم؟

أومأ لها إيجابًا ثم تحدث بحنينٍ و هو يكمل ما يفعله :

_و أنا صغير كنت بحوش من مصروفي و آخر الشهر بجيب حَمَام و أنا راجع من المدرسة ، كنت بأكلهم من السندوتشات بتاعتي و بعدها بفتح القفص و أطيرهم ، رغم إني مكنتش بستفاد حاجة بس احساس عظيم إنك تدي مخلوق حريته ، لحد النهارده محدش يعرف الموضوع ده غيري و أنتِ أول واحدة تعرفيه .

ابتسمت على براءته و كادت دموعها أن تهبط ، بشريٌّ كهذا يسعى لنيل طائرٍ حريته و آخرون يقيَّدون من قِبَلِ بشرٍ مثلهم ، السلطة تعلو على من هم أضعف و المتسلط لا يلقي بالًا بما ينتظره ، يحسب حياته أبدية و سيظل ينهب حقًّا من مستضعفٍ دون أن يحاكم في دار القضاء ، لكن هيهات ؛ ما هو إلا مخلوقٌ و خالقه اسمه العدل .

أطلقت "جُموح" تنهيدة عميقة و شردت في ذكرياتٍ عديدة لكن أفاقها صوته و هو يتحدث في الهاتف و عندما انتهى أخبرها في عجالة :

_هوقف لك تاكسي و همشي أنا عشان مستعجل .

ضيقت بين حاجبيها و سألته مرتابة إن كان هناك أمرٌ ما فأجابها ببعضٍ من الأسى :

_والدة صاحبي توفت و محتاج أكون جنبه .

شعرت بالأسى عليها و على المذكور خاصةً عندما تذكرت والدتها المتوفاة و شردت في لحظاتهما سويًّا و لم تفق إلا على صوت "ثائر" و هو يناديها لتستقل السيارة التي أوقفها لها ، فتحركت هي بالسيارة أما هو فاستقل أخرى متجهًا بها نحو منزل صديقه "أنـس" .

وصل إلى منزل صديقه بعد عدة دقائق فوجد الحزن يخيم عليه و بدى وكأن الظلام يعمه رغم الأضواء المنتشرة فيه ، وجد صديقه يقف شاحب الوجه فتوجه إليه يدسه بين أحضانه فانفجر الآخر في البكاء راثيًا أمه ، ربت "ثائر" على ظهره ثم وقف بجانبه يؤازره في تخطي محنته و ظل طيلة اليوم مجاورًا لرفيقه حيث تكفل هو بأمر مراسم العزاء بدلًا عنه حتى لا يزداد الحمل فوق كاهله .

الفصل الثالث

كالمهرة تعدو متمردةً و تسابق الرياح ، الرمال تُبعثَر أسفل أقدامها و هي تكمل عدوها دون كبح جماح ، لا تأبه بظلام الليل و إن كسته الأتراح ، فهي على يقينٍ أن كل ليلة يتلوها صباح .

عادت "جموح" إلى منزلها محملةً بالهموم بعدما تذكرت والدتها المتوفاة و عادت الذكرى تداهم عقلها الذي بات لا يحتمل ، دلفت غرفتها بخطواتٍ متثاقلة لتجد شقيقها يتبعها إلى الداخل ؛ فسحبت نفسًا عميقًا تهدئ من روعها قبل أن تلتف له بثباتٍ تُحسد عليه و هي تقول باندفاع :

_عايز إيه المرة دي يا "خالد"؟ ، جاي تسألني موافقة عالجوازة الهباب دي ولا لأ؟ ، مش موافقة يا "خالد" و أعلى ما في خيلك اركبه .

تشنجت معالم وجهه بضيقٍ حاول ردعه و هو يقول بصوتٍ خفيض بدى مُسالمًا لكنه حمل التهديد في ثناياه :

_و ماله يا "جُموح" براحتك يا حبيبتي ، بس انسي بقى إني أطلع لك جنيه من جيبي ، ما صدقت تتجوزي عشان تحلي عني شوية ألاقيكِ جاية لي متطلقة ، و دلوقتي عاملة لي فيها بت بجد و بتتشرطي ، مش تحمدي ربنا إن حد عبرك من أصله .

اقتربت منه فتقابلت المُقل في موقفٍ مهيب ، حيث اللوم من جهتها و الجحود من جهته ، توغلت نظراتها المعاتبة داخل حدقتيه الجامدتين و هي تردف بقهر لم ينفك عن نبرتها :

_و أنت ترضاها على رجولتك إن أختك اللي من دمك تتهان من واحد ميسواش؟! ، هو أنا لقيت الهنا معاه و اتنمردت؟ ، ربنا العالم أنا شوفت إيه من إهانة بكل أشكالها ، إهانة في كرامتي و أنوثتي و طعن في شرفي اللي هو شرفك!! ، شتيمة لأمي و أبويا اللي هم أمك و أبوك ، بس أنت هتحس إزاي ما أنت و زيه .**

برزت عروقه بغضبٍ و كز على أسنانه قبل أن يباغتها بالقبض على خصلاتها بكفه لكن على غير المتوقع لم تصرخ أو حتى تئن بل بصقت كلماتها في وجهه كمهرةٍ جامحة لا تقبل طأطأة الرأس :

_ده آخرك يا "خالد" ، آخرك تسترجل عليا أنا ، كنت فين و هو بيهددني قصاد عينك إني لو متنازلتش عن قضية الخُلع هيقتلني؟ ، معملتش راجل عليه ليه و هو داير يسوء سمعتي في المنطقة؟ ، جايز أنا مش قد إني أقف قدامكم بس ربنا ينتقم لي منك و منه ، عمري ما هسامحك يا "خالد" .

جذب خصلاتها و قد تضاعفت قوة قبضته فصرخت رغمًا عنها ، لكن صرختها المدوية لم تمنع وابل السُباب الذي انهال عليها منه أن يصل إلى أذنيها ؛ فانهمرت دموعها قهرًا و كأن ما طاله جسدها منه لم يكن بنفس مقدار ألم تأذي كرامتها من إهاناته المتكررة ، و لم يكن الأمر موجعًا لذاته بقدر ما آلمها أن المتسبب هو شقيقها ، تذكرت حنو "ثائر" الطبيب عليها و أسئلته المتتابعة لمعرفة سبب الكدمات التي غطت جسدها و إصراره على مساعدتها لاسترداد كرامتها المهدورة ، كيف لمن لا يتقرب إليها بأي صلة أن يكون عطوفًا أكثر ممن ربطها به رباط الدم؟

استمر "خالد" في صفعها تارةً بالكلمات اللاذعة و تارةً بكف يده الذي كان يهبط على وجنتها بين حينٍ و آخر خلال نوبة غضبه الذي ختمها بقوله :

_اسمعي يا بت أنتِ عشان أنا جبت آخري منك ، البيت اللي أنتِ مبرطعة فيه ده بيتي ، و هو شهر بالكتير و مش عايز أشوف خلقتك الكريمة دي قدامي ، تغوري مطرح مع تغوري بقى ميهمنيش ، اللي عندي قُلته .. عايزة تتجوزي الجن الأزرق حتى و ماله ، قدامك شهر تتصرفي فيه زي ما تتصرفي و بكيفك .

أفلتت خصلاتها من بين أصابعه بأعجوبة و انفجرت تهدر في وجهه و هي تلهث من فرط الانفعال :

_يعني إيه بيتك؟ ، ده بيت أبويا الله يرحمه و ليا فيه زي ما ليك و لو طلعتني منه هرفع عليك قضية يا "خالد" ، زي ما سَبَق و عملتها في "مؤمن" و خليته يطلقني غصبٍ عن عينه ، أنا مبقاش ليا عزيز و اللي عندك أعمله .

ابتسم ساخرًا ثم اقترب بوجهه منها و نطق بفحيحٍ كالأفعى التي تحقن سُمها في مجرى الدم :

_أنتِ طيبة أوي يا "جُموح" و بدأتي تصعبي عليا ، أنتِ متعرفيش إن أبوكِ كتب لي البيت ده في حياة عينه؟

اتسعت حدقتاها و ارتجفت شفتاها و هي تتمتم بغير تصديق :

_أنت كداب !! ، بابا مستحيل يعمل فيَّ كده .

قالتها و هي توكزه في صدره بقبضتها فأمسك بيدها و أنزلها عنوةً و باليد الأخرى أخرج ورقة من جيبه و وضعها نصب عينيها و هو يرمقها بمكرٍ غلّف نظراته كما تمكن من قلبه أو بالأحرى الصخرة الصماء الماكثة في صدره ، طالعت الورقة بتيهٍ فقد كانت تحتوي على بصمة اصبع والدها كدليلٍ على امضاءه على إقرارٍ بانتقال ملكية المنزل لولده .

ابتلعت الغصة التي بحلقها و خرج صوتها مهتزًا و هي تقول :

_مستحيل!! ، بابا عمره ما بَصَم على أي ورق علطول كان بيمضي ، أنت نصاب و حرامي و أنا هاخد حقي منك يا "خالد" ، انسى إني أسيبك تعمل اللي في دماغك ، ده بيت أبويا و مش هخرج منه و لو على موتي .

أنهت حديثها بصراخٍ أثار استفزاز الآخر فدفعها بقوة فسقطت على السرير تتأوه من آلام ذراعها الذي لم يلتئم كسره بعد ، ليسترسل "خالد" حديثه السام هادرًا :

_ابقي روحي قولي الكلمتين دول للحكومة لما أخرجك منها بالغصبانية ، عايزة تثبتي غير كده روحي قوِّمي محامي و وريني بقى هتدفعي أتعابه ازاي ، و لو حكَمِت آخرتها هتبقى موتك فعلًا يا "جُموح" .

تركها و خرج لتجلس هي محلها تنتحب من ألم الخذلان و آلام جسدها أما هو فاندفع يختلي بذاته و هو يتذكر اللعبة الدنيئة التي حاكها خصيصًا لشقيقته ، يتذكر حينما كان والده على فراش الموت تتلاحق أنفاسه فتسلل إلى غرفته يستخدم إبهامه دون وعيٍ من الآخر لماهية فعلته ، و من هنا بدأت معاناة شقيقته في ملاقاة العذاب منه بعدما وارى التراب جسد والدها خلفه .

نظر "خالد" إلى صورة والده المعلقة أمامه بحقدٍ ظهر جليًّا في حدجتيه و هو يهمس بطاقة كرهٍ لو أُطلِقت على العالم لأبادته :

_أنت مسيبتليش اختيار تاني ، مدتنيش فرصة أعرف أحبها ، طول عمرها واخدة حقي في كل حاجة حتى فيك و في حبك ، فيها إيه أحسن مني عشان تتمنى لها الرضا ترضى و أنا كنت بتعامل أو معاملة؟!**

و لم يكد يكمل حديثه حتى التقط مزهريةً و قذف بها على الصورة فسقط الإطار متهشمًا و تسبب الزجاج في تمزيق الصورة حتى تلفت تمامًا ، هبط على ركبتيه أمام بقايا الصورة ينظر لعيني والده و قد امتزج الضيق في نظراته بالعتاب .

انفلتت دمعة خائنة من بين أهدابه و هو يقبض على الإطار المتهشم بقوة حتى انغرزت شظايا الزجاج بكف يده لكنه لم يشعر لا يدري حقًّا أهو بسبب المخدر الذي يتناوله أم أن قلبه كان يحوي من الألم ما يكفي لئلا يشعر بآخر .

بعد قُرابة الأسبوعين كان "ثائر" جالسًا في مكتب رفيقه كعادته لكن تلك المرة كان "أنس" صامتًا شاردًا و صديقه فقط يربت على يده دون حديث ؛ فقد كانت تلك المرة الأولى التي باشر فيها "أنس" عمله بعد وفاة والدته و منذ ذاك اليوم و هو ممتنع عن الحديث و عن حياته بأكملها ، فقد حيويته و مرحه و ابتسامته المشرقة ، لا يستطيع التغافل عن هوية المتسبب في فقدانه والدته الحبيبة ، ولا يستطيع تجاوز أنه ليس بمقدوره الثأر .

و بينما هو وسط شروده انفتح الباب و دلف منه رجلٌ في نهايته عقده الرابع و لم يكن إلا مدير المشفى و صديق "مُختار" ، دلف الرجل بملامح واجمة و أردف :

_خير يا دكاترة؟ ، هنفضل كل يوم على الحال ده و محدش فيكم بيشوف شغله؟ ، اتفضل يا دكتور "ثائر" على مكتبك .

آثر "أنس" الصمت بينما "ثائر" تقدم منه حتى اقترب و نبس بنبرةٍ خفيضة :

_متنساش تروح تشتكي لأبويا بقى يا دكتور "ساهر" ، عن اذنك .

أنهى تهكمه ثم خرج و توجه إلى عيادته فوجدها تنتظره خارجها ، دلفها و انتظر بضع دقائق حتى دلفت هي الأخرى برفقة الممرضة و بعدما أنهى فحصه المعتاد صرَف الممرضة و سألها معاتبًا :

_بردو مش عايزاني أساعدك؟ ، يا "جموح" صدقيني مينفعش ، هتسيبي نفسك كده لحد ما تموتي؟

طالعته بإرهاقٍ أصبح يلازمها ثم تسائلت و قد بدت قلة الحيلة في نبرتها :

_أنت عايز مني إيه بالظبط؟ ، عايز تفهمني إنك مهتم بيا كده لله؟

ترك مقعده و تحرك حتى جلس أمامها و قال و لم يبرح الثبات صوته رغم غرابة ما يتفوه به :

_عايز أفهمك يا "جُموح" ، تركيبة غريبة نفسي أعرف أولها و آخرها فين ، قدامي واحدة قوية و جامدة بس الظاهر عليها غير كده ، عايز أعرف مين اللي قدر يبهدلك كده و اللي هيجنني أنتِ ساكتة ليه؟ ، بحاول أساعدك عشان شوفت نفسي فيكِ ، أنا أكتر واحد عارف إن سكوتك على حقك مش ضعف ، بس حتى لو أنا سكت قبلك بس مش هقبل يحصل لك كده و أنا في إيدي أساعدك .

تنهدت و ناظرته بأعينٍ خاوية و قذفت بحديثها في وجهه بتعابيرٍ خاليةٍ من الانفعالات :

_و لو قُلت لك إنه أخويا؟ ، هتساعدني بردو؟

تحفزت حواسه كوضعية هجومٍ و قال و هو يحاول كبح ضيقه الذي لم يعرف له سببًا :

_أكيد هساعدك ، أنا طول عمري كان نفسي يبقى عندي اخوات ، مش فاهم إزاي واحد يبقى عنده النعمة دي و يعمل فيها كده ، أهلك فين إزاي سايبينه؟

أصدرت ضحكة ساخرة ثم نبست بحزنٍ دفين :

_و هو فرعنه عليا كده غير غيابهم؟ ، أبويا توفى من خمس سنين و أمي ماتت بحسرتها عليه ، مفاضليش غيره ينهش فيا .

منحها كامل تركيزه و نطق متسائلًا :

_طب إيه هدفه مش فاهم؟

نظرت إلى الفراغ أمامها بشرودٍ و قالت بعدما تنهدت تزيح ثقل الهموم على صدرها :

_عايز يطلع من ورايا بسبوبة يطفح بيها الهباب اللي بيشربه ، كل ده عشان عايزة أحافظ على نفسي و مش راضية أمشي وراه و أرمي نفسي في حضن راجل ضِعف عمري .

اتسعت عيونه مدهوشًا ؛ فهو من ظن أن ما يتعرض له أقسى صور الظلم غير مدركٍ لما تحاكيه الأخرى من الويلات ، في حياته المتمحورة حول والديه و عمله و شغفه للرسم لم يسع عقله قسوة العالم من حوله ، لم يرى أشقاءً يتسابقون كالذئاب على افتراس بعضهم البعض و لم يرى أحدًا قط بِخِسّة الضِباع .

ابتسمت ساخرةً و هي ترى تعابيره المصدومة فأضافت مسترسلة بهدوءٍ واهي :

_و البجح جاي يقول لي الراجل مراته ماتت يعني مبقالكيش ضُرة ، و قال إيه هيأجل جوازنا عشان مشاعر عياله ، شايف الحنية؟

بدأ بتجميع أطراف الخيوط و عقدها لتضح الصورة كاملةً و تذكر وقتما كان في جنازة والدة رفيقه .

منذ أسبوعين

وقف "ثائر" يؤازر صديقه و الآخر يحاول الثبات قدر الإمكان لكن شتت ثباته ظهور والده كما الغرباء الذين أتو لتقديم واجب العزاء والمواساة ، اقترب من "أنـس" الذي ودّ لو ينفض هذا الجمع و يختلي بذاته بعيدًا عن نظرات الشفقة التي تحيطه من كل جهة .

رفع "أنـس" رأسه يرمق والده متبرمًا و النيران تتقد في صدره خاصةً حينما نطق "حسّان" بنبرة باردة :

_البقاء لله .

لم يجبه "أنـس" بل ظل في حرب النظرات خاصته بينما أكمل الآخر غير آبهٍ بأمره :

_أنا أجلت جوازي احترامًا ليك و لأختك ، أنا مش جاحد للدرجة دي ، و جيت لك لحد هنا عشان أنت واخد مني موقف مش شايف له داعي بصراحة ، ولا كإني أنا اللي قتلتها .

ضغط "أنس" على أسنانه و قد برزت عروق رقبته من فرط قوة ضغطه و تأثرت تعابيره بالحنق الذي تغلب على كافة المشاعر لديه و كاد أن يرفع صوته هادرًا بما لا يحمد عقباه لكن "ثائر" ردعه حين وقف بينهما و هو يدفع "أنـس" إلى مدخل البيت و هو يقول متداركًا الموقف :

_مش وقت الكلام ده دلوقتي يا عمي بعد اذنك اتفضل ، ادخل يا "أنس" .. أطلع لأختك و مراتك زمانهم محتاجينك .

تقابلت أنظار الصديقين حيث الحسرة من المكلوم و كأنه يشكو أساه و الآخر يطمئنه بعينيه قبل أن يومئ يحثه على الدلوف و الابتعاد عن المحيط الذي يخرج أسوأ ما فيه

عودة

شرد "ثائر" لثوانٍ يضع كافة الاحتمالات و التي تتضمن أن الرجل الذي استباح انتهاك شابةٍ بعمر ابنته هو نفسه الذي أنهى حياة زوجته بدمٍ باردٍ و لم يلتفت لأحدٍ من أولاده ذوي الأفئدة الجريحة .

فرك "ثائر" وجهه بإنهاكٍ ثم نظر إليها يردد تائهًا و يطلب منها الاسترسال لتجيب أنها قد أفرغت ما في جعبتها فاستقام هو يطلب منها بهدوء :

_قومي معايا يا "جموح" لو سمحتِ .

رفعت حاجبها تعترض ثم هتفت بطبيعتها الحادة :

_أنت هتستحلاها ولا إيه؟ ، ولا أنت فاكرني رخيصة و هرمي نفسي عليك عشان تنشلني من اللي أنا فيه! ، لو أنت أهلك ربوك إنه عادي فأنا تربية حواري و عندنا الحاجات دي عيب و حرام ، أنا مستحقراك و مستحقرة نفسي من آخر مرة و قعدتي معاك دلوقتي عشان أجيب آخرك و أشوف الفيلم الهابط بتاعك ده ناهيته إيه .

تنهد يحاول السيطرة على غضبه فتلك الهوجاء تثير استفزازه بشدة _من وجهة نظره بالطبع فأنا أرى أن معها كل الحق عزيزي القارئ_ ثم أردف بابتسامة مصطنعة :

_أنا ولا شايفك رخيصة ولا لسه أعرفك أصلًا لو مش واخدة بالك ، بعد اذنك يا آنسة "جموح" اتفضلي معايا مينفعش قاعدتنا في المستشفى هنا تطول ، في كلام كتير محتاجين نقوله و بعدها هتعرفي إن نيتي خير .

هبت تقف أمامه ناطقةً بتحدٍّ صريحٍ و هي تمسك بحقيبتها متأهبةً للخروج :

_خير ولا شر أنا مش كاتعة ولا محتاجة الفارس المغوار ييجي يخطفني عالحصان الأبيض من القصر اللي مشغليني فيه جارية .

تركته هائمًا في ذهوله و توجهت نحو الخارج مردفة :

_سلام يــا .. يا فارس ، ولا أقول لك يا دَكترة؟ ، شكلها عجبتك .

رمش بأهدابه عدة مراتٍ يدرك حديثها الذي باغتته به قبل أن يلحق بها و يمنعها من فتح الباب بقوله :

_عجبتني يا نُغَّة ، زي ما سمعتك محتاج تسمعيني ، بعد اذنك يا "جُموح" هم كلمتين و بعدها ليكِ حرية الاختيار .

أطبقت الحصار على عينيها بجفونها في محاولةٍ منها للتحكم في غضبها الذي يبرع ذاك المختل في اثارته ، فتحتهما بتروٍّ ثم نبست من بين أسنانها بموافقةٍ و هي تضغط عليهم بقوة و هنا تهللت أساريره و كاد أن يمسك بيدها ليخرجا سويًّا لكنه تذكر تهديدها فآثر السِلْم و طلب منها بتأدبٍ عبثي أن تخرج حيث فتح لها الباب و أردف بمرواغة :

_ladies First (السيدات أولًا) .

رمقته مشمئزةً ثم تقدمت تسير أمامه و هو خلفها يشملها بنظراته يحاول استنباط أي جانبٍ من شخصيتها غريبة الأطوار .

دقائق و وصل كلاهما إلى المكان ذاته الذي جمع بينهما في المرة السابقة و بدأ هو الحديث قائلًا بشرود :

_من صُغري كنت بحب الرسم جدًا و كنت شاطر فيه ، مجهودي و طاقتي كلهم كانوا بيروحوا في محاولة إقناع أهلي إن ده شئ فطري فيا و يميزني مش تضييع وقت ولا هيعطلني عن مستقبلي ، ما وارد يكون هو أصلًا مستقبلي! ، كانوا رافضين الفكرة تمامًا بس أنا كنت عنيد لحد ما في مرة ..

ترك حديثه مفتوحًا و بدأ بريق الدموع يلمع في مقلتيه قبل أن يكمل :

_مرة من ضمن محاولاتي دي رسمت بابا ، كان كلي شغف أشوف ردة فعله و في مخيلة طفل عشر سنين إنه هينبهر بموهبتي و يسيبني أعمل اللي أنا عايزه ، روحت له و بكل براءة قُلت له بص يا بابا أنا عملت دي ، و كنت في الانتظار لإني أشوف انبهاره بيا بس لقيته مبصش أصلًا و قال لي اخفى من وشي أنا مش فاضي لتفاهاتك دي .

مسح دموعه و أكمل بانكسارٍ أكثر :

_التفاهات دي كانت أنا .. كنت بحاول ألفت نظره أنا أبقى مين و بحب إيه بس هو عمره ما اهتم ، كل اللي كان فارق له إزاي أهز اسم الدكتور "مُختار عاشور" و أبقى فاشل ، أنا فاشل !! ، لمجرد إني عايز أكون نفسي أبقى فاشل !

كان يردد كما المجذوب غير واعٍ بكونه من يُحدث و أين ، تنفس الصعداء ثم استرسل :

_لسه فاكر يوم نتيجتي في الثانوية لما رجعت لقيت كل أدواتي متبهدلة ، لوحي متقطعة و أحلامي كلها قصاد عيني بتنهار و آخرهم حلمي إني أدخل فنون جميلة ، كان فاكر إني مذاكرتش قاصد عشان أعند معاهم و مدخلش طب بس هو ميعرفش إني فعلًا مكنتش قادر ، مكنتش جاهز أبدًا لإني أكون في مكان مش مكاني و كان نفسي يفهموا ده .

ناظرته بشفقةٍ إلى أن وجدته يخرج ورقة مطوية من محفظته و كان يبدو عليها القِدَم ، بسطها أمامها فوجدتها تحتوي على رجلٍ يشابه الواقف أمامها بحدٍّ كبير ، كادت تستفسر عن هويته لكنه سبقها بقوله :

_كل لوحي قطّعها بس مكانش يعرف إن دي لسه معايا ، مكانش يعرف عنها حاجة أصلًا ، لو كان اهتم يومها كان هيعرف إنها مش موجودة وسط اللي بوظهم ، دي بالذات حاولت بنفسي أقطعها بس قلبي مطاوعنيش ، زي ما مبيطاوعنيش أحتج على أي وضع ميريحنيش ، من يوم ما لقيت رأيي ملوش مكان في حساباتهم و أنا سَلِّمت و رضيت ، هم فاكرين سكوتي اقتناع برأيهم ميعرفوش إنه قهر .

صمتت في حضرة أوجاعه و هو يصرح بها طواعيةً منه و ليس ككافة أفعاله ، لم تعلم للحق لما يأتمنها و يكشف جميع أوراقه أمامها لكنها على يقينٍ أنه يمتلك حجة قوية لأفعاله المثيرة الريبة تلك ، هو ساذجٌ هي تعلم .. لكنه ليس بهذا المقدار من الغباء .

و قد صدق حدسها حينما هدأ هو قليلًا و نطق مفسرًا :

_أنا بقول لك الكلام ده عشان تعرفي إني فاهمك يا "جموح" ، من أول مرة شوفتك و أنا حاسك زيي ، يمكن أنتِ أحسن مني و بتقاوحي مع الدنيا ، و عشان كده أنا عايز أساعدك ، مش هرضى لك تطاطي زيي ، مش هسيبك تواجهي أخوكِ لوحدك ولا هسمح له يئذيكِ تاني ، بس عشان يبقى ليا الحق لازم يبقى في حاجة تربط بينا .

ضيقت ما بين حاجبيها فصرَّح هو بما عقد لسانها :

_تتجوزيني يا "جُموح"؟

ما به هذا المجذوب يرمي بحديثه دون ذرة تعقل؟ ، هل ظهر على ملامحها تقبل وجوده من الأساس لينتهي بهما الأمر بعرض زواج؟!

الفصل الرابع

بعض الحقائق تقلب الموازين و تبعثر الخطط ، ربما لسانٌ أفصح بالصدق يودي بالطريق إلى مسارٍ آخر لم يكن في الحسبان ، لكن رغم مرارة الحقيقة إلا أنه من الوجوب ألا توارى خلف اختلاق الأكاذيب .

واقفٌ أمام والديه يتلقى نتيجة بوحه بالصدق و لم يضع في اعتباره ردات الفعل المناقضة لإرادته المكبلة ، وقف في محاولةٍ لفرض حريته المرة الأولى و منح ذاته حق الاختيار لكنه قوبِلَ بصراخٍ كانت ماهيته :

_مُطلقة!! ، عايز تتجوز واحدة مطلقة يا "ثائر"؟! ، عايز تقهرني مش كفاية مستحملاك و مستحملة استهتارك طول السنين دي .

تلقى هدير والدته بوجهٍ مكفهر و للمرة الأولى قرر اقتباس أفعاله من اسمه و يثور حيث هتف بصوتٍ متهدج :

_أنا اللي بقالي سنين مستحمل كفاية بقى ، أنا مبقيتش صغير أنا سبعة و عشرين سنة فاهمة يعني إيه! ، اللي زيي دلوقتي عايشين حياتهم محدش بيقول لهم أه أو لأ على حاجة ، كفاية بقى ارحموني أنا لحد النهارده مفيش حاجة واحدة في حياتي كانت باختياري .

و عاود صوت "نهاد" الصدوح في غضبٍ شديد :

_ولد!! ، إزاي تتكلم كده أنت نسيت إني أمك ؟!

ابتلع الغصة المريرة المتشكلة في حلقه و أردف لكن بنبرة أكثر اهتزازًا و وهنًا :

_للأسف منسيتش ، و دي المشكلة .

عبارته و صوته كان كافيًا لجعل قلبيهما يكاد يقلع من محله ، عبارةٌ قست عليه قبلهما و خرجت من أشد مواضع ألمه ، تزعزع ثبات كلٍّ من "مُختار" و زوجته إثر حديث ولدهما الأوحد لكن كعادة "مُختار" العملية اقترب منه يتحدث جامدًا:

_كنت عايزنا نسيب لك الحبل عالغارب عشان تضيع نفسك؟ ، مش هتصعب عليا يا "ثائر" أنا كل مرة بتأكد إني صح و إنك مش أهل لإنك تاخد قرارات بنفسك ، مش لما تعرف أنت عايز إيه الأول يا مُشَتَّت .

اهتز كيانه بأكمله و كان وقع الكلمات عليه كوقع السوط من فرط ألم أثره ، و إن كان أثر السوط يزول فإنه يقسم أن أثر العبارات باقٍ أمد الدهر ، شعر بانفطار فؤاده و الكلمات توشَم فيه حتى لا تبرحه مهما حيا .

شعر بارتعاشةٍ تسري في كف يده و بوخز الدموع في عينيه و هو يود أن يفر هاربًا من نظرات والده التي تخترق روحه و كلماته التي تجهر بضعفه و تكشفه أمام ذاته ، انقبض قلب "مُختار" لرؤيته حالة ولده المُزرية و خاصةً حينما نطق و خرج صوته مبحوحًا متألمًا :

_و مين اللي كان السبب؟ ، مين اللي لغى شخصيتي و مسابش ليا فرصة ألاقي نفسي فيها و أعرف أنا عايز إيه؟ ، مين اللي كل ما أتعلق بحاجة يحرمني منها؟ ، أنت فاكرني ناسي حاجتي اللي اتبهدلت يوم نتيجة الثانوية العامة؟ ، فاكرني ناسي لوحي اللي تعبت فيهم و لقيتهم حتت قدام عيني؟ ، فاكرني ناسي تجاهلك ليا و أنا بوريك دي ..

صاح بآخر كلماته و هو يخرج الصورة الخاصة بوالده التي رُسِمَت بفرشاته و هنا اتسعت أعين "مُختار" دهشةً فبالفعل كانت تلك المرة الأولى التي يرى بها الصورة ، تأثر لكم الوجع الذي يحتمله ولده لكن كطبيعته التي تفرض عليه عدم الاعتراف بالخطأ أردف بعجرفة :

_ما أنت لو مكنتش بتعند معايا على الفاضي و بتفهم إني عايز مصلحتك كنت سيبتك تعمل اللي أنت عايزه لإني كنت هبقى متأكد إنك مش هتضيع وقتك ، إنما أنت كنت عنيد و عايز تضيع نفسك ، و آخرهم دلوقتي عايز تتجوز واحدة معرفش جايبها منين و تهز سمعتي و اسمي ، أنا الدكتور "مُختار عاشور" اللي أكبر المستشفيات بتتمنى بس أشرف عليها ، ييجي حتة عيل زيك يهز مكانتي اللي ببنيها بقالي سنين! ، مش هسمح لك يا "ثائر" .

سقطت دموع "ثائر" و اختلطت مشاعرٌ عدة و أصواتٌ كثيرة داهمت عقله و هو يقف مُشتتًّا لا يُدرك أيًّا من الطرق يسلك ، لكنه لمرته الأولى لم يختر الصمت بل صرَّح بسخطه مردفًا :

_طب و أنا ؟! ، من سنين و أنت مش فارق لك غير اسمك و شغلك طب و ابنك ! ، و طالما أنا مش في حساباتك جبتني ليه؟ ، طالما مش هتقدر تحبني و تديني من وقتك خلفتني ليه؟

انتحب في آخر كلماته التي عقَّب عليها "مُختار" قائلًا بنبرة أقل حدة بل و تدخل الذهول بين طياتها :

_أنا مش بحبك !! ، أنت ابني الوحيد يعني مبحبش قدك ، أنا كل اللي بعمله ده عشانك و من حُبي فيك ، من خوفي عليك خوفت في مرة تختار غلط و تضيع مستقبلك .

و للمرة الأولى يرفع صوته في مقابلة والده مبررًا لذاته أنه كالبركان الذي تحمل ضغط الحرارة لأعوامٍ و قد حانت لحظة ثورته الهائجة :

_و أنت مين خلاك واصي على حياتي؟! ، مين سمح لك تمحي شخصيتي و وجودي؟! ، أنا بسببك مبقيتش قادر حتى على أبسط القرارات ، في واحد في سني ده لسه مش عارف هو بيحب إيه ولا عايز إيه؟

انكسرت حدة نظرات "مُختار" و تحدث متلجلجًا :

_أنا أبوك يا "ثائر" .. كنت بعمل كل ده عشان عايزك تبقى أحسن مني .

تبدلت ملامح الأسى في وجهه إلى أخرى ظهر بها الحنق و هو يهتف نزقًا و يتفوه بما لا يناسب كونه في حضرة أبيه :

_أنت بتضحك عليا ولا على نفسك؟ ، أنت عمرك ما كنت عايزني أحسن منك ، أنت عايز تشوفني متكتف و مجبور زيك ، مستحملتش تشوفني بختار بإرادتي عشان أنت مقدرتش تعمل ده ، كنت عايز تخليني نسخة تانية منك عشان متحسش إني عشت حياة أنت معشتهاش .

هبطت الحقائق على رأس "مُختار" عالصاعقة الرعدية التي شلَّت تفكيره و عقدت لسانه المتجبر ، يقف أمام ولده حائرًا في أمره كما المتهم الذي تلقى حكم القاضي ، انفجار ابنه هز كيانه و كشف له العقدة الدفينة التي تركت أثرها بأفعاله دون أن يعي لما يقترفه بحق ولده .

و عندما حل الصمت بين جميع الأطراف حيث كانت العيون بالكلام سوابق تقدمت "نهاد" من ولدها تحاول تجميل الحديث حتى لا يزداد اشتعال الموقف :

_يا "ثائر" يا حبيبي إحنا ممكن فعلًا نكون غلطنا في حقك بس صدقني إحنا كان يهمنا مصلحتك ، بس مش معنى إنك عايز تغير الوضع ده إنك توقع نفسك كده ، إحنا مش هنضايقك تاني بس بلاش تبهدل نفسك في جوازة زي دي عشان تعند معانا ، أنت ناقصك إيه بس عشان تعمل في نفسك كده؟

التفت لها يصارحها بصوتٍ واهنٍ بعدما تكالبت عليه الأوجاع :

_ناقصني أحس إن ليا لازمة ، و انتوا فشلتوا تخلوني أحس بِدَه .

رمى بنظراتٍ لائمةٍ كانت كفيلة ليخر كلاهما صريعًا من فرط الندم ثم فرَّ هاربًا من حضرتهما المؤلمة لقلبه و طفقت "نهاد" أن تلحق به لكن ردعتها يد "مُختار" الذي نطق بشرود :

_سيبيه ، كفاية خساير لحد كده آديكِ شايفة اللي اتعمل فيا لما كنت مكانه وصلنا لإيه ، ولا عرفت أتأقلم عليكِ ولا عالوضع كله ، و هو اللي دفع التمن .

حركت رأسها بالتفاتةٍ عنيفة نحوه و هي تنبس مدهوشة :

_قصدك إيه؟ ، أنت كنت مجبور على جوازك مني؟

نظر لها نظرةً مطولةً ذات مغزى ثم تنهد بقوة و تركها هو الآخر لتقف هي تتابع انهيار مملكتها الصغيرة التي جاهدت لتشييدها ، لكنها لآخر ثانيةٍ لم تدرك أنها بالاتجاه الخاطئ .

جالسةٌ في غرفتها تتذكر ما حدث في صبيحة اليوم و كيف داهمها الآخر بطلبه الغريب من نوعه .

منذ عدة ساعات

_تتجوزيني يا "جموح"؟

باغتها بعرضه فالتفت ترمقه بعجرفتها المعتادة ثم نطقت بغضبٍ أُشعل داخلها إثر كلماته التي رأتها مهينة بشدة :

_نار "خالد" ولا جنتك لو هتمشيها شفقة ، زي ما سبق و قلت لك أنا مش كاتعة ولا مستنية أصعب على أمثالك ، وفر خدماتك يا دوك .

تنهد يسيطر على ثباته ثم أردف مبررًا :

_أنا مش قصدي إهانة ليكِ والله ولا هي شفقة زي ما قولتي ، "جُموح" أنا عايزك بجد .. هو أكيد محدش فينا جواه مشاعر للتاني لسه بس أنا حاسس إني محتاجك .

طالعت مُقلتيه الخضراوتين برماديتيها في ضياعٍ التمسه هو فطمأنها بنظراته لتحدجه بثباتٍ واهٍ يعاكس حقيقتها الهشة ، فهي كالأسوار الشاهقة ضعيفة البنية ، من يراها يحسبها لا تقهر لكن هبوب الرياح يودي بها إلى الهلاك .

شردت قليلًا تمعن التفكير في حديثه ثم قالت ساخرةً مع ابتسامة تهكمية :

_و أنت بقى موافق تتجوز واحدة مُطلقة؟

ظهر أثر حديثها على وجهه حيث ارتبك قليلًا لكن سرعان ما عاد إلى سيرته الأولى و نطق واثقًا و هو يمد يده ببطاقةٍ خاصةٍ به :

_ده رقمي .. كلميني أول ما تقرري ، ليكِ حرية الاختيار بس أتمنى تختاري صح ، يلا عشان أوصلك .

أخذت البطاقة منه و سارت معه كما المغيبة دون أن تدرك الخطأ الذي اقترفاه ، فهما لا يجمع بينهما أي رباطٍ يشرع سيرهما سويًّا و حديثهما بأريحية ، لكن كل منهما كان يركض خلف أهواءه و يسارع لإنقاذ ذاته فاتبعا مقولة "الضرورات تبيح المحظورات" .

و بالفعل وصلا حيث بداية المنطقة التي تقطن بها لكنها أصرت على تركه قبل الاقتراب من المنزل حتى لا تحدث جلبةٌ و يكون اسمها كالعلكة تلوك بأفواه هذا و ذاك و ينتهك عِرضها الذي جُرِح من كثرة الأقوال التي تطعنه بلا رحمة .

عودة

شردت في حديثه و هي ترمق البطاقة بيدها و ازدادت حيرةً في أمرها ، أتحدثه و تخبره بموافقتها ليكون غوثًا لها أم تتحمل أفعال أخيها وحدها دون إقحام أحدٍ لئلا يتضرر ؟

زفرت بقوة و هي تحاول لملمة شتاتها المبعثرة و العدول عن التشتت ، أرادت وضع خط نهايةٍ للصراع الناشب لكن الأمر يزداد سوءً ، و ها قد حلَّ السوء كله على هيئة شقيقها الذي دلف غرفتها كالإعصار .

انتفضت فزعًا و هي ترى اقتراب "خالد" الذي وصل إلى ذروة غضبه و ظهر ذلك على جميع انفعالاته ، حيث كان مُحمر الوجه و عيناه يتناثر منهما الشرار و يقبض على يده بقوةٍ كادت تكسر عظام كفه ، ابتلعت ريقها بخوفٍ لم تستطع مواراته تلك المرة فمظهر أخيها لا ينذر بالخير البتة.

رفعت ذراعيها أمام وجهها في هيئةِ دفاعٍ عن النفس و هي تتسائل بارتجاف :

_في إيه يا "خالد" ؟ آاه .

أصدرت صرخة رن صداها في الأرجاء و هو يسحبها من خصلاتها مُسقطًا إياها على الأرضية ثم هبط بجوارها ينبس بنبرةٍ جحيمية و هو يشدد القبض على شعرها حتى كاد يقتلع رقبتها :

_بقى اللي مقوي قلبك عليا الـ*** اللي أنتِ مرافقاه؟! ، و أنا أقول حالك مايل ليه أتاريني متقرطس و مش دريان باللي بيجرى من ورا ضهري ، بقى أنا يتقال لي حاجي على أهل بيتك بسبب واحدة **** زيك .

كانت تتأوه بلا توقفٍ فتلك المرة لم تتمكن من الوثوب أو ردع سطوته عليها فقد أعماه الغضب ، و قد بدى ضعفها أمامه و هي تسأله بمهانة :

_إيه اللي بتقوله ده أنا أختك يا "خالد" ! ، حرام عليك تتهمني اتهام زي ده أنا عملت إيه ؟

خرج حديثها بصعوبة حيث كان صوتها يتهدج ما بين كلمةٍ و أخرى حتى شارف على الانقطاع من كثرة التأوهات التي توسطته بينما هو فقد زادت نوبة جنونه و هو يلصق الهاتف بوجهها و الذي كان يحتوي على صورةٍ تجمعها هي و "ثائر" سويًّا أثناء سيرهما ، قد التُقِطَت في غفلةٍ منهما من أحد رفاق أخيها و ها هي تلاقي نتيجة خطأ غير مقصود .

طالعت الصورة مذهولةً و لم تجد ما تُبَرئ به ذاتها أو بالأحرى لم تتسنى لها الفرصة حيث صرخ "خالد" بها و هو يضرب رأسها بالسرير :

_أنا غلطت لما سكت على واحدة زيك ، و ربي و ما أعبد لتكوني في بيت جوزك من بكرة ، و حتى لو مش عايز يكتب عليكِ دلوقتي خليكِ مرمية عنده لحد ما كيفه يجيبه ليكِ ، و لو كان اتفاقنا جوازك قباله فلوس فأنا مش عايز حاجة غير إني مشوفش وشك تاني .

و بعد آخر ارتطامةٍ لرأسها بالسرير أعاد رأسها إلى الخلف ثم تركه بغتةً فهوى على الأرض ينزف أما هي فخارت قواها و أصبحت بنصف وعيٍ و الألم يجتاح رأسها الذي شُج ، أصبحت الرؤية مشوشةً لكنها استطاعت تمييز هيئة شقيقها و هو يستقيم واقفًا أمامها ثم سحب حزام بنطاله و انهال على جسدها ضاربًا بوحشية ويكأنها ليست شقيقته المتكونة في الرحم ذاته الذي كان سببًا في تواجده الآن ليهدر كرامتها دون مثقال ذرة من ندمٍ أو تراجع .

مستندٌ على السور الفاصل بينه و بين النيل شاردٌ في أمره ، يجلد ذاته بسياط الندم على انفجاره أمام والديه بتلك الطريقة و على حديثه الذي عرَّى القشرة الظاهرية الخاصة بأفعال والده ، تفاجأ من جرأته و ثباته اللذان ظهرا لمرتهما الأولى لكن قد طفح كيله و تحمل ما يفوق طاقته ، تحمل ليكون اعتراضهما الأخير هو من ضغط على زناد صبره .

و بينما هو غارقٌ في أفكاه أتاه اتصالٌ من المشفى ماهيته :

_دكتور "ثائر" في حالة طوارئ و محتاجين حضرتك ، عندها كسر في الجمجمة و مش عارفين نوصل لأي دكتور تاني .

أنهى مكالمته في عجالةٍ ثم استقل أول سيارة أجرة رآها و توجه إلى المشفى و وصلها في غضون دقائق و ما إن دلفها حتى وجد من ينقض عليه كانقضاض الأسد على فريسته و لم يهده فرصةً لاستدراكِ الأمر بل انهال عليه باللكمات و السُباب و الحديث الذي أثار تعجبه أو بالأحرى لم يفهم نصفه ، لم يدرك الأمر إلا حينما أنقذه رجال الأمن من بين براثين الآخر و الذي لم يكن إلا "خالد" .

استند "ثائر" على الحائط و وقف و هو يمسح الدماء التي سالت من أنفه و يمعن النظر في وجه الآخر عله يعلم هويته لكنه لم يتمكن من التعرف عليه لذا أمر رجال الأمن أن يلقوه خارجًا ، و بالفعل تحرك رجال الأمن و هو بصحبتهم حيث كبلوه بأيديهم و الآخر يصرخ بكلماتٍ وصلت إلى "ثائر" حيث قال بانفعالٍ شديد :

_هقتلك يا ابن الـ**** ، هعرفك إزاي تقرب من أخت "خالد جادالله" .

تعرف "ثائر" عليه بواسطة اسمه لذا استنتج بفطنته أن حالة الطوارئ ما هي إلا "جموح" المسكينة ، ركض حيث مكتبه يتجهز ثم دلف غرفة الطوارئ ليصدق حدسه و يراها مستلقاةً على فراش العمليات و هناك مجموعة ضيئلة من الأطباء بتخصصاتٍ أخرى و كذلك ممرضون يعملون جاهدين للسيطرة على وضعها الذي يرثى له ، تدخل هو الآخر بلهفةٍ و بدأ في فحص جمجمتها و فعل اللازم حتى تسترد عافيتها .

و بعد ما يقارب الساعة خرج من الغرفة و هو ينزع قناعه الطبي و الشرار يتطاير بعينيه و هو يتحرك خارج المشفى ليرى "خالد" يشتبك مع رجال الأمن فاقترب منه بسرعة يقبض على تلباب قميصه يهدر عاليًا :

_أنت ازاي قذارتك توصل بيك لإنك تعمل كده في أختك يا زبالة؟ ، أنت أحقر بني آدم شوفته في حياتي و هي مش هتعتب باب بيتك تاني ، مش هستنى أما تموتها يا حشاش يا و .**

لكمه بعد حديثه فترنح "خالد" إثر اللكمة لكنه استعاد ثباته بسرعة و همَّ يرد اللكمة للآخر لكنه تفاداها و أمسك بذراعه يمنعه من الاقتراب ، و رغم تساوي بنيتهما الجسدية متوسطة القوة إلا أن "خالد" كان الأمهر في قتال الشوارع على عكس "ثائرَ" ذو الحياة رفيعة المستوى و الشخصية المنزوية عن العالم ، و قد استغل "خالد" الفارق بينهما و بسرعةٍ هائلة أخرج مديةً من جيبه بذراعه الحُر و حركها في الهواء ليلمع نصلها وسط ظلمة الليل ، و قبل أن يتخذ "ثائر" ردة فعلٍ كان نصلها ينغرز أسفل بطنه .

انفجرت الدماء تسيل بغزارةٍ بعدما أخرج "خالد" نصل المدية ليضع "ثائر" يده بحركة تلقائية في موضع جرحه الذي جحظت له عيناه و لم تستطع قدماه التحمل فكاد يسقط أرضًا لكن "خالد" كان أسرع منه فطعنه مرةً أخرى في صدره لتنغلق أعينه الجاحظة و يهوي و قد ألح عليه النزف حتى أحاله لصُفرة الجاديّ في مشهدٍ مروعٍ على مرأى و مسمعٍ من المارة و رجال الأمن و دالفي المشفى و الخارجين منها ، لقد غُدِرَ بالبراءة تحت الأنظار و لم يتحرك أيٌّ من الواقفين ليمنع جريمةً تهتز لها الأفئدة .

لقد قُتِل ثائرٌ قبل أن يثأر ..

الفصل الخامس

العدل سمةٌ شريفة تنَحّت من القلوب ، و صارت كفة الشر تعلو على خاصةِ الخير في ما يسمى بميزان العدل ، الأرواح تُنتهك دون رحمةٍ و الدماء تُسفَك باستباحةٍ كما استباحةِ "قابيل" لدمِ شقيقه "هابيل" ، لقد تناسى بنو الإنسان أنهم بدنيا الفناء و أن المظالم ترد في يومٍ لا ريب فيه .

و لأن لكل قاعدةٍ نواقض ، فالحق قد يعود لمالكيه في لحظةٍ قرر فيها العدل العدول عن قمعه ، و قد ظهر ذلك جليًّا في قاعة المحكمة أثناء الجلسة الأخيرة من المحاكمة في قضية مقتل "ثائر" .

وبعد الأقوال التي أدلى بها محامي الدفاع الذي وكله "حسان" في محاولةٍ لإنقاذ "خالد" وقف المحامي الذي وكله "مُختار" على المنصة الخاصة به أمام القاضي يلقي بمرافعته بثبات :

_سيدي القاضي ، حضرات السادة المستشارين ، إني ليؤسفني أن أحيا ليومٍ أشهد فيه مقتل شابٍ كـ"ثائر" ، الشاب الهادئ ذو الخلق الطيب الذي لم يشهد أحدٌ منه سوءً قط ، يؤسفني أن أرى أن دمه قد استباح بسهولةٍ و هُدِرَ على يد مُجرمٍ ظالم ..

_ادخل في صُلب القضية يا متر .

قالها القاضي بعمليةٍ ليحمحم المحامي ثم أكمل :_بسم الله الرحمن الرحيم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى" سيدي القاضي إني لأطالب بتطبيق الحكم طِبقًا للعدالة الإلهية و للدستور المصري الذي من شأنه الإعدام شنقًا لمن قتل عمدًا مع سبق الإصرار و الترصد ، و لقد قدمت لسيادتكم ملف فيديو التُقِطَ من الكاميرات الخاصة بالمشفى و التي هي مقر عمل المجني عليه ، لقد ظهر المتهم و هو يهدد المجني عليه بالقتل و بشهادة رجال الأمن أنه من بدأ بالهجوم عليه و الذي يعدُّ تعدٍّ على طبيبٍ أثناء تأدية عمله ، و كما ورد في شهادة الشهود أن المجني عليه خرج من المشفى ليجد المتهم يتشابك مع رجال الأمن و حينما شرع في فض الاشتباك و الثأر لكرامته المهدورة من قِبَلِ الآخر أخرج المتهم أداة حادةً و طعن المجني عليه .

و حسب تقرير الطب الشرعي قد طُعِنَ موكلي أسفل بطنه و في صدره في موضع قلبه ، أي أن القتل لم يكن عن طريق الخطأ في شجارٍ اعتياديٍّ كما ادّعى محامي الخصم و إلا لكانت طعنةً واحدة يدافع بها المتهم عن ذاته فحسب ، كما أن حيازة المتهم لسلاحٍ أبيض تشير إلى توافر نية سابقة للقتل .

كما أشادت المدعوة "جُموح مؤيد جادالله" بعدم تعرض المجني عليه لها بسوءٍ مثلما قال شقيقها المتهم و أنها لم تسبقها به علاقةٌ خارج إطار المألوف ، و بشهادة ممرضته الخاصة لم يلتقيا سوى ثلاث مراتٍ في عيادته بالمشفى و تبعًا لحديث والديه أنه أراد الزواج منها بشكلٍ رسميٍّ لكن قبل أن يتخذ خُطوةً واحدةً كان المتهم قد نفّذ جريمته البشعة في حقه .

ثم استرسل بلكنةٍ غير رسمية :

_مش طبيعي يا رَيِّس إن شاب زي "ثائر" يتقتل لسبب زي ده من واحد بلطجي فاكر إن البلد مفيهاش قانون ، و مهما كانت الأسباب متبررش ليه ينهي حياة بني آدم بالشكل المروع ده .

تنفس الصعداء ثم عدَّل من ثوب المحاماة خاصته في ثقةٍ و عاد إلى سيرته الأولى يتحدث بنبرةٍ وثابة :

_أنا على أتم الثقة في عدالتكم و شكرًا سيدي القاضي .

تنحى من محله و عاد حيث كان ليستمع إلى صوتٍ القاضي يتسائل :

_الدفاع عايز يضيف حاجة؟

أجاب محامي الدفاع بالرفض فصدح صوت القاضي عاليًا :

_الحكم بعد المداولة .

دقائقٌ مرَّت على الجميع كمَرِّ السنين ، تلاقت النظرات حيث كانت أعين "مُختار" و زوجه تحرقان "خالد" من قوة النظرات التي تود أن تفتك بيه بينما هو شاردٌ في عالمه يرى ملذاته تسلب منه في غمضة عين ، و "جموح" تجلس شاحبة الوجه تطالع الجميع بنظراتٍ خاوية ، لقد كانت حاضرةً بجسدها دون روحها التي قد فقدتها بالفعل .

و "أنس" الذي ينتظر الحكم الذي قد يطفئ نيران قلبه قليلًا ، فالصدمات توالت عليه دون شفقةٍ و آخرهم مقتل صديقه ، صديقُه الذي عاش وحده يحلم بنيل الحرية ، عاش بريئًا لا يكترث للعالم ولا يقحم ذاته في المشكلات بأشكالها ، كان يُساق في صمتٍ منه دون أن يعترض ، لم يثُر و زهقت روحه قبل أن يثأر .

و ما أثار تعجبه هو تواجد والده بل و نظراته الخبيثة تجاه تلك الفتاة التي مقتها بشدة منذ علم أنها شقيقة قاتل صديقه ، و قبل مجيء القاضي اقترب منها و حدثها بحدة :

_"ثائر" طول عمره كان في حالُه لحد ما أنتِ ظهرتي ، كنتِ عايزة منه إيه؟ ، فضلتي تستدرجيه لحد ما خليتيه عايز يتجوزك و آخرتها أخوكِ العِرة يضيع عمره و شبابه ، ربنا ينتقم منكم بحق قهرتي عليه .

رفعت رأسها تطالعه بنظراتها الخالية من المشاعر و لمعت الدموع بطرفي عينيها ، لم تُجبه رغم روحها الذي تصرخ أني بريئة ، وضعتموني في موضع الجاني و ما كنت إلا مجنيًّا على حُريته .

اشاح "أنس" بنظراته عنها ليجد والده يرمقه بحدةٍ و يشير له بالابتعاد عنها ، ضيق ما بين حاجبيه و لم يستطع عقله الإلمام بالأمر فزفر بقوةٍ ثم عاد إلى محله تزامنًا مع مجيء القاضي و أعوانه .

لحظاتُ ترقبٍ من الجميع ينتظرون كلماتٍ سيتفوه بها القاضي ، سترمم تلك الكلمات روحًا و تزهق أخرى ، ستطفئ النيران المتوهجة بقلبٍ و تشعل أخرى ، و أخيرًا نطق القاضي بما أظهر مشاعر متباينةً بين الحضور :

_حكمت المحكمة حضوريًّا على المتهم "خالد مؤيد عبدالوهاب جادالله" بالإعدام شنقًا و ذلك وفقًا للمادة ٥٨ من قانون العقوبات و التي تنص على : "يعاقب بالإعدام كل من قتل نفسًا عمدًا مع سبق الإصرار والترصد" ، رُفعت الجلسة .

وقف "خالد" ببذلته الحمراء يضرب على القضبان أمامه بسخطٍ و هو يقنع ذاته بمقولة "ياما في الحبس مظاليم" ، و من بين صرخاته الناقمة اقتربت منه شقيقته تقف أمامه يفصل بينهما القضبان الحديدية بقاعة المحكمة ، تبادلا النظرات ما بين الخواء منها و الحقد منه ، نظرت له نظرةً مطولةً تحاول البحث داخلها عن دقيقة مرت عليهما سويًّا تنبت التعاطف داخلها لكن لم تجد سوى لحظاتٍ جعلت منه مسخًا بلا قلب .

ناظرها بغضبٍ شديدٍ ثم همس بحُرقة :

_بكرهِك ..

ابتسمت ترمقه باستعلاءٍ ثم تركته و خرجت تحت أنظار "حسان" التي لم تغب عنها منذ حلولها ، انفض التجمع و عاد كلٌّ حيث كان ، عاد "مختار" مع زوجته كلاهما محملٌ بالأعباء .

وصلا إلى المنزل في صمتٍ أول من قطعه كانت "نهاد" التي نطقت بنبرةٍ حاسمة :

_طلقني يا "مُختار" .

نظر إليها نظرةً لا تنُمُّ على شيءٍ ثم نبس بجمود :

_أنتِ طالق .

ألقى كلمته ثم خرج دون أن يتحدث مجددًا ، كلاهما مشتتٌ ضائع لكنهما على يقينٍ من أنهما و للمرة الأولى في الطريق الصحيح .

عادت "جُموح" إلى بيت أبيها منزوعة الأحاسيس و المشاعر ، دلفت و كأنها المرة الأولى لها ، تشعر بالاطمئنان لعدم تواجد أخيها و تستوحش المنزل و قد فرغ من سكانه عداها ، فقدت الجميع .. أصبحت كما الخيل الشريد ، و إن كان الخيل ينتمي لموطنه و يشعر بالغُربة إن ابتعد فهي الآن تعيش الغُربة في موطنها ، المهرة الجامحة فقدت عنفوانها و بهت بريقها ، لقد عادت "جُموح" دون جُموح .

ابتسمت ساخرةً حينما تذكرت أحد جيرانها الذي تقدم للشهادة في الجلسة و قال بنبرةٍ واثقة :

_"خالد" عمره ما كان بتاع الحوارات دي ، مكناش بنسمع له صوت في المنطقة غير و هو بيضرب أخته .

نفضت الكلمات عن رأسها و تحركت في المنزل بخطى وئيدة توزع بصرها في جميع أرجائه و كأنها تودعه ، لا تعلم لما لكنها شعرت بانقباضةٍ في صدرها ازدادت حينما طُرِقَ الباب ..

فتحت باب المنزل بترددٍ لتجد شخصًا تجهله يقف أمامها بهيئة أمين الشرطة و يخبرها بطريقةٍ عملية :

_حضرتك مدام "جموح مؤيد جادالله"؟ .. الأستاذ "حسان كارم أبوالهوى" رافع عليكِ قضية بيطلبك في بيت الطاعة .

توسعت عيونها بذهولٍ قبل أن تهتف و هي تكاد تُجن :

_بيت الطاعة!! ، مين ده أنا مش متجوزة ولا أعرفه أصلًا.

مد أمين الشرطة يده بورقةٍ أمسكت هي بها و حينما بسطتها وجدت أنه عقد زواجٍ به اسمها يقترن باسم ذاك الغريب ، و حينما رأت صورته تعرفت عليه ، هو الرجل الذي كان يجلس جوار محامي الدفاع الخاص بشقيقها ، ربطت أطراف الخيوط لكن عقلها عجز عن الاستيعاب حتى انتشلها من بين أفكارها صوت هاتفها الذي دق برقمٍ مجهول .

أجابت و هي على يقينٍ من أنه هو ليأتيها صوته الماكر يقول :

_مش عيب تبقي بايتة بره بيت جوزك؟ ، جهزي نفسك هاجي آخدك ، إدي الموبايل لأمين الشرطة اللي واقف قدامك عشان أتصرف أنا بردو مرضاش إني أعمل شوشرة لمراتي ، أنا بس بعرفك أنا أقدر أعمل إيه .

استقبلت كلماته بجزعٍ شديدٍ و ازداد تيهُها و شعرت بالأرض تميد بها ، الوضع تأزم من كافة الجهات و الأبواب جميعها أغلق ، أدركت أن المقاومة لن تفيد لذا نفذت أمره و أعطت الهاتف للواقف أمامها و بعد بعض الكلمات المبهمة بينه و بين الآخر ذهب دون حديث .

أغلقت الباب خلفه و هبطت تجلس على الأرضية ضامَّةً ركبتيها إلى صدرها و أصابعها تغلغلت بين خصلاتها ، الأمر يزداد سوءً و أسوار حمايتها تنهار أمام ناظريها ، لم تعد قادرةً على ردع الأذى عن ذاتها ، لقد قتلت روحها عن عمدٍ و لن تحيا مجددًا .

بعد عدة دقائق و هي ما زالت على نفس وضعها سمعت طرقاتٍ على الباب فاستندت على الأرضية و استقامت تفتحه لتجده أمامها بابتسامته الخبيثة ، لم تجادله و تركته يدلف ثم أغلقت الباب و طلبت منه بوهن :

_عايزة أفهم بس و مش عايزة منك أي حاجة تانية ، أنا مفاضلش ليا حاجة و خلاص مبقيتش فارقة .

اقترب "حسان" يقف في مقابلتها ثم أجابها بنبرةٍ باردة :

_من أول ما عرضت على أخوكِ أتجوزك و هو كتب كتابك عليا بدون علمك ، بس عشان عارف إنك عنيدة طلب مني يقنعك الأول .

للحقيقة لم تتفاجأ البتة ، هي على قدرٍ كبيرٍ من الإدراك أن شقيقها يُجَن أمام الأموال و على أتم الاستعداد أن يفعل حتى ما لا يروقه لجني المال و إن كانت بطرقٍ غير مشروعة .

لم تجادل و لم تعترض أو تثور ، فقط طالعته بالنظرة ذاتها و أردفت بكل هدوء :

_لو معندكش فكرة إحنا جوازنا باطل لإنه بغير موافقتي ، تقدر تبدأ في الإجراءات للمحكمة و السجن عشان "خالد" يكون موكلي لعقد جديد و المرة دي بموافقتي عشان متبقاش خربانة من كل ناحية .

اندهش من استسلامها لكنه لم يعقب بل اكتفى بإيماءةٍ خفيفة ثم خرج من المنزل و هو ينتوي العمل باقتراحها ، أما هي نظرت في أثره بنظرةٍ مجردةٍ من أي حُزنٍ أو غضب ، لقد قررت أن تجاري الرياح حيث تحركها .

و بعد فترةٍ وجيزة استطاع "حسان" الحصول على إذن من المحكمة و موافقة إدارة السجن لحضور "خالد" عقد قران شقيقته و ها هو الآن جالسٌ ببيته و يرافقه حارسان منذ خرج من محبسه ، جلس أمام "حسان" و بينهما المأذون الشرعي الذي بدأ في عقد القران وسط أجواءٍ باردة خالية من أي مشاعر حميمية ، انتهى العقد بعد إدلاء "جُموح" بإمضاءها و كذلك اثنين من أصدقاء "خالد" اللذين حضرا كشهود و انصرف الجميع عدا "حسان" و "جُموح" و شقيقها و الحراسة خاصته الذين كانوا يتأهبون للعودة .

و قبل أن يتجاوز "خالد" باب الشقة تحركت "جُموح" نحوه و بصقت في وجهه بغيظٍ قابله هو بنظراتٍ نارية ثم تحرك برفقة الحارسين ليعود إلى محبسه ، أما هي بعد ذهابه رمقت "حسان" بمقتٍ شديد لتجده يتقرب منها مع ملامحٍ غير مريحة بالمرة ، شعرت بالاشمئزاز منه و أرادت أن تهشم رأسه لتهدأ نفسها لكنها على يقينٍ أنها لن تفلت من بين براثين ذاك المتجبر .

أمسك "حسان" بيديها بين كفيه و تحدث بنبرةٍ لعوب :

_مش يلا يا حبيبتي؟

سقطت دموعها التي جاهدت لردعها رغمًا عنها ثم أماءت بإذعانٍ و تحركت معه كما عروس الماريونيت التي أطراف خيوطها بين يديه ليحركها كما شاء .

بعد مرور شهر

تحركت "جموح" في بيتها الجديد الذي تحاول التأقلم عليه قدر الإمكان ، خرجت من المطبخ ممسكةً بيدها طبقًا للإفطار و أخرجته تضعه على المائدة بجوار بقية الصحون و عندما انتهت دلفت غرفة "حسان" الذي يزداد اشمئزازها منه يومًا بعد يوم ، اقتربت منه أثناء نوم و نادته بصوتٍ حادٍ لكنه لم يستجب .

زفرت بقوةٍ ثم مدت يدها لتوقظه و ما إن لامست جسده حتى سرت الرجفة بجسدها ، تكره لمساته لها و تكره قربه حتى أنفاسه باتت تمقتها ، لكنها تحاملت على ذاتها و حركته بخفةٍ مع ذكر اسمه و أيضًا لا استجابة منه ، انتابها القلق قليلًا فتحسست موضع نبضه لتجده متوقفًا لا حياة فيه ، تراجعت إلى الخلف بتوترٍ فقد وضعت بين المطرقة و السندان ، فكرت في الهروب و ترك جثته المقيتة ليصيبها التعفن فهذا ما يليق بأمثاله ، لكن فطرتها السليمة فكرت بأن إكرام الميت دفنه .

أمسكت بهاتفه تفكر في من تحادث فوجت رقمًا مُسجلًا باسم "أنس" ، تتذكر ذاك الاسم فقد ذكره من قبل و أخبرها أنه ولده المتمرد "ابن أمه" كما يُطلِق عليه ، شرعت تتصل به لكنها لاحظت صورته الموضوعة بجوار اسمه ، تعرفت عليه بسهولةٍ فهي لن تنسى نظراته المتهمة ، هو نفسه صديق "ثائر" الذي كان حاضرًا يوم المحاكمة ، ترددت قليلًا لكنها اهتدت إلى الصواب و انتظرت جوابه على الاتصال حتى فعل .

أجاب "أنس" على الاتصال رغم حيرته ما بين أن يجيب أم لا لكنه في النهاية أجاب و أتاه صوتها مرتبكًا :

_"أنس" .. أنا مرات "حسّان" و هو دلوقتي بصحيه مش بيفوق و مش عارفة أتصرف ، من فضلك تعالى أنا عارفة إن بينكم خلافات بس ده والدك .

رق قلب الآخر رغمًا عنه فتحدث بهدوءٍ طفيفٍ بعدما حاول السيطرة على ثباته :

_حاضر ، مسافة السكة .

أغلق المكالمة بعد جملته المقتضبة و وقفت هي تنتظره و تترقب ردة فعله ، دقائق و أتى و دلف المنزل و ما إن رآها حتى هتف مذهولًا :

_أنتِ !! ، عايزة مننا إيه تاني كفاية بقى أنتِ مش مكفيكِ اللي عملتيه .

اقتربت منه تتحدث بنبرةٍ أكثر انكسارًا و هي تتوسله :

_"أنس" أرجوك أنت متعرفش حاجة ، بالله عليك أنت كفاية أنت مجربتش اللي حصل لي ولا تعرف عنه حاجة ولا تعرف أنا هنا ليه و إزاي ، و "ثائر" ربنا العالم إني مكنتش عايزة أدخله في مشاكلي و إني لحد النهارده بتعذب بتأنيب الضمير ، أرجوك كفاية عليا أوي اللي حصل أنا حياتي كلها اتدمرت و خسرت كل حاجة .

انتحبت بشدةٍ فتوتر هو و داعبه الشعور بالذنب لذا مد كفه يربت على كتفها متحدثًا بأسف :

_خلاص طيب متعيطيش أنا آسف .

جفلت إثر لمسته و كذلك هو أبعد يده مسرعًا بعدما أردك كلاهما يعلم أن فعلته لا تشوبها شائبة باعتبارها زوجة أبيه لكن الأمر لم يكن مريحًا لكليهما و بالأخص هي ، مدت أناملها المرتجفة تمسح دموعها ثم حدثته بصوتٍ مهزوز :

_ادخل شوف باباك أنا مش عارفة إيه اللي حصل .

أومأ موافقًا ثم دلف الغرفة فوجد والده مستلقٍ على السرير بجسدٍ لا روح فيه ، داهمه شعورٌ غريبٌ و أدمعت عيناه بغير وعيٍ منه ، لن ينسى أوقاتهما المرحة سويًّا و كيف كان يحنو عليه و على شقيقته و والدته ، انقلبت الموازين بغتةً ولا سواه يعلم السبب .

اقترب "أنس" منه و ارتجف كفه و تشكلت غصة في صدره ، جثى على ركبتيه أمام السَرير و أمسك بكفه بين يديه و هو يعاتبه بالنظرات ، لم ينبس ببنت شفةٍ لكن عيناه أفصحتا بمكنون عتابه .

جلس هكذا لدقائق ثم هب واقفًا يتأكد للمرة الأخيرة أنه قد فارق الحياة ثم التفت لـ"جموح" حينما استمع إليها تخبره:

_"أنس" أنا عايزة أوري لك حاجة .

انتبه لها بكامل تركيزه فأشارت على أحد الأدراج ليقترب منه و يفتحه ، و حينما فتحه وجد فيه مجموعةً من المخدرات فتوقع أنه ربما تسببت جرعةٌ زائدة منها في وفاته خاصةً مع عمره الذي كبُر .

اهتزت حدقتاه باضطرابٍ شديد ثم التفت إلى "جموح" يسألها بانهزام :

_متعرفيش بقاله قد إيه ؟

رفعت رأسها تجيبه بهمسٍ خَجِل :

_هو قال لي إنه اتعرف على "خالد" أخويا في واحدة من القعدات دي من حوالي شهرين .

تلك تحديدًا الفترة التي بدأت فيها طباعه في التغير من سيءٍ إلى أسوأ ، لقد اهتدى إلى السبب لكنه ما زال لا يدرك لما أقحم والده ذاته في ذاك المستنقع حتى بلغتهم أذيته .

تنفس يضبط نفسه ثم تحدث إلى جموح متعبًا :

_لو عايزة تمشي دلوقتي براحتك ، أنا هتصرف .

حركت رأسها توافق و بالفعل كادت تذهب لتتجهز لكن على حين غرة هوت على الأرضية مغشيًّا عليها ، صرخ "أنس" باسمها و وقف في المنتصف بينها و بين والده و لم يسعفه عقله في اتخاذ القرار الأنسب لكن أتاه طوق النجاة على هيئة شقيقته التي حدثها أثناء مجيئه و قد حضرت لتوها ، نظر إليها بلهفة بينما هي كانت تحاول استيعاب الأمر ليرفع صوته طالبًا منها بعجلة :

_كلمي اعمامك خليهم ييجوا و أنا هوديها المستشفى ، مش هتأخر عليكِ .

أومأت له موافقةً رغم غياب استقرارها و عدم إدراكها للأمر برمته لكنها بدأت في التنفيذ حيث كان الوضع لا يحتمل وقتًا للإدراك ، أما "أنس" فحمل "جُموح" إلى الأسفل حيث سيارته و تحرك بها نحو المشفى .

و بعد مرور عدة دقائق من وصولهم خرج الطبيب من غرفتها فاقترب منه "أنس" يتساءل متلهفًا عن حالتها الصحية فأجاب الطبيب بالجملة المعتادة في مثل تلك الحالات :

_مبروك المدام حامل!

قالها الطبيب ببساطةٍ شديدة غافلًا عن أثر الحديث على الآخر الذي كان كالكارثة التي حلت على رأسه .

بعد ما يقاربُ الثمانية و عشرين عامًا

الهواء يضرب وجهه و يبعثر خصلاته البيضاء و هو واقفٌ أمام قبر رفيقه يحادثه بأريحيةٍ كأنه حاضرٌ أمامه و ختم حديثه مردفًا بابتسامةٍ مصحوبة بالدموع :

_أنا بس جيت أقول لك إنك وحشتني ، و إنه النهارده بقى قدك ، سعيت على قد ما أقدر إنه ميعيش اللي أنت عيشته رغم الظروف الغريبة اللي اتولد فيها ، و ربنا يقدرني و أنجح في إني أكمل ده لحد ما آجي لك ، هو و "سفيان" بقوا أصحاب زينا بالظبط ، كل ما بشوفهم مع بعض بفتكرك .

مسح دموعه ثم نقل بصره حيث القبر الذي يجاوره و الذي حمل اسم "مختار سالم عبدالجواد عاشور" و تمنى له الرحمة هو الآخر و دعى ربه أن يغفر لكليهما ثم ترك المدفن بأكمله و خرج ، استقل سيارته محددًا وجهته و في غضون دقائق وصل إلى منزلٍ و طرق بابه ليُفتح بواسطةٍ شابٍ في السابعة و العشرين من عمره و الذي حينما رآه تهللت أساريره و اقترب يعانقه بقوةٍ مرحبًا به بينما نطق هو بِود :

_"ثائر" .. عامل إيه يا حبيبي؟

أجابه الآخر يطمئنه على أحواله و في تلك اللحظة حضرت والدة الشاب ترحب بالرجل في حفاوة :

_اتفضل يا "أنـس" واقف على الباب ليه ؟

رفع يده بجوار صدره كعلامةٍ على الشكر و هو يقول بهدوء :

_ملوش لزوم أنا بس جيت أتطمن عليكم و أقول لـ"ثائر" كل سنة و أنت طيب ، أخبارك إيه يا "جُموح"؟ ، أوعى يكون الواد ده مغلبك والله أزعله .

ابتسمت "جموح" بخفةٍ بينما علَّق "ثائر" مدعيًا البراءة :

_أنا بردو أقدر يا أبيه .

تشنج وجه "أنس" و عقب مستنكرًا :

_أبيه!

شبك "ثائر" ذراعيه أمام صدره و اعترض نزقًا :

_ما هو أنا بصراحة مش عارف أعمل إيه في الحيرة دي ، انت أخويا بس أكبر مني بتمانية و عشرين سنة ده أسميه إيه؟ ، أسميك أنت شخصيًا إيه؟

بدى حديثه منطقيًا قليلًا لذا أردف "أنس" بحنقٍ زائف :

_أي حاجة بس بلاش الكلمة السمجة دي .

أومأ "ثائر" في اذعانٍ ثم نبس بتأدبٍ عبثي :

_حاضر يا أبيه .

وأدت "جموح" ضحكتها بينما "أنس" طالع كليهما بقلة حيلة قبل أن يلقي السلام و يستأذن للذهاب و أثناء هبوطه على السُلم تقابل بولده "سُفيان" الذي هتف بنبرة متعجلة :

_السلام عليكم يا حجيجة .

و قبل أن يرد السلام كان الآخر يتخطى السُلم بسرعةٍ و هو يهدر عاليًا كطفلٍ يدعو صديقه للعب الكُرة :

_يا "ثـائـر" ، انزل يالا مجهز لك سهرة عنب عشان عيد ميلادك .

وقف "أنس" يطالع أثره و هو يضرب كفيه ببعضهما البعض في ذهولٍ لكنه سرعان ما ابتسم بغبطةٍ على ولده الذي وطد علاقته بمن يفترض أن يكون عمَّه ، لكن إحقاقًا للحق لقد تعامل "أنس" مع كليهما على حدٍّ سواء أنهما ولداه و بالأخص "ثائر" الذي كان هدفه الأوحد أن يجعله بالفعل ثائر .

تمت بحمد الله..

البداية 1/5/2024

النهاية 8/6/2024